سلسلة زاد الخطباء

الجزء الرابع

القبر والموت والعرصات

كتبه

الشيخ الفاضل حسين بن محمود الحطيبي

مكتبة صلاح الدين
للنشر والتوزيع
اليمن - عدن

حُقُوقُ الطَّبعِ مَحفُوظَة

الطبعة الأولى

١٤٤٤هـ / ٢٠٢٢م

رقم الإيداع:
٢٠٢٢/٩٥٤٢

مكتبة صلاح الدين
للنشر والتوزيع
اليمن - عدن

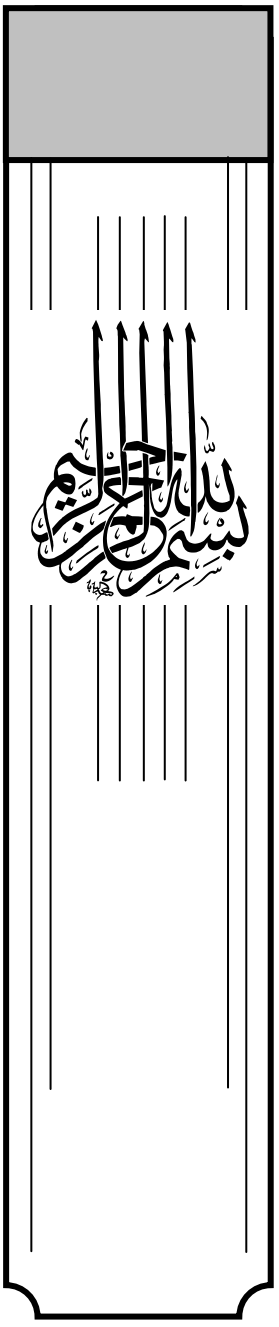

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقَدِّمة

الحمد لله رَبِّ العالمين، والصَّلاةُ والسَّلامُ على نبيِّنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فهذا الجزء الرابع من كتابي: «سلسلة زاد الخطباء»، وهو بعنوان: «القبر والموت والعرصات».

وقد طُبِع الجزء الأوّل والثاني، وهكذا الجزء الثالث يُجهَّز للطبع، وهي عبارة عن خطب لي تُفرَّغ ليَنتَفِع بها من شاء الله، ولستُ براضٍ عنها بالكلّية، ولكن لكثرة المشاغل، وكثرة المطالبين أن أكتب في الخطب، عزمتُ على تفريغ الصوتيات وترتيبها والإصلاح منها وطبعها ليحصل النفع، وما لا يُدرَك كلّه لا يُترَكُ جُلُّه، ونسأل الله التوفيق والإخلاص والسداد.

كتبه: الفقير إلى عفو ربّه

أبو معاذ حسين بن محمود الحطيبي

في مدينة عدن - صلاح الدين

ليلة الاثنين ١/ صفر/ ١٤٤٤ هـ

الموافق ٢٨/٨/ ٢٠٢٢ م.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[١] تذكر الموت

◈ الخطبة الأولى:

إنّ الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾[آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١ ﴾ [الأحزاب].

أما بعد، فإنّ أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون عباد الله، يجب علينا أن نعلم علم اليقين أنّنا من هذه الدنيا راحلون، وعلى الله عَزَّوَجَلَّ مقبلون، وبين يديه مسئولون عن الصغير والكبير، وعن النقير والقطمير، وعن الأقوال والأفعال.

نقف في ذلك اليوم العظيم، حافية أقدامنا، شاخصة أبصارنا، عارية أجسامنا، والشمس قد دنت من الخلائق قدر ميل، والجبار سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يعرض على العباد أعمالهم، وما جنَت أيديهم في هذه الحياة الدنيا، فلابد أن نُعِدّ العُدَّة لتلك اللحظات، ولذلك اللقاء العظيم.

قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم كما في «الصحيحين» عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلاَ يَرَى إِلَّا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، وَلَوْ بِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ**» [أخرجه البخاري (٧٥١٢)، ومسلم (١٠١٦)].

الأيام تمضي، والأعمار تذهب، ونحن نسير إلى الآجال ساعة فساعة.

يا أيها الناس، انتهى عام هجري ودخلنا في عام جديد، ماذا صنعنا في العام الذي مضى، تصفَّح الأيام والليالي، انظر في الشهور الخاليات، ماذا قدمت بين يديك عند الله عَزَّوَجَلَّ من الأعمال، هل أنت مِمَّنْ يقف بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ ويرفع عقيرته قائلا: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ۝١٩ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝٢٣ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ۝٢٤﴾ [الحاقة].

أم أنت من الذين قال الله عنهم: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝٢٥ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝٢٦ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ۝٢٧ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ۝٢٩﴾ [الحاقة].

أيها الناس نحن نسير إلى آجالنا، ولا نعلم متى القضاء المحتوم، ولا متى الأجل المقسوم، نسير إلى الله عَزَّوَجَلَّ، والموت يتخطف الرقاب يمنة ويسرة، ونحن نرى الناس يرحلون من بين أظهرنا، مِن أحبابنا، من جيراننا، من زملائنا، من آبائنا، من أبنائنا. فهل كان لنا إعداد لهذا اللقاء واستعداد للقاء الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٢٨١﴾ [البقرة].

هل تَفَكَّرنا في الأيّام التي مضت، ماذا صنعنا فيها؟ هل نظرنا في عامنا الذي انصرم، ماذا أنتجنا فيه من الخيرات التي ننتفع بها في ديننا ودنيانا، أم أنها ذهبت هدرا، وسُلِبت منا، وضاعت من أيدينا.

روى الإمام البخاري من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالفَرَاغُ**» [أخرجه البخاري (٦٤١٢)].

ما ترى صنع الذين يخوضون في صحتهم وفي شبابهم وفي قوتهم، وفي أوقاتهم وفي أموالهم، وفيما أكرمهم الله عَزَّوَجَلَّ به في الدنيا، يخدعون بها فتضيع من بين أيديهم. فيلقون الله جَلَّوَعَلَا وهم صفر اليدين ليس لهم ما يكون سببا لنجاتهم ولا لسعادتهم ولا لفوزهم.

قال الله جَلَّوَعَلَا في كتابه الكريم: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ٤٧﴾ [الأنبياء].

لا تنس معاصيك، لا تنس زلّاتِك، لا تنس فإن الله لا ينسى، وإن ذلك كله في كتاب، ﴿وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٞ ٥٣﴾ [القمر].

يا أيها الناس، إنّنا نقرأ عن الموت، ونسمع الموت، ونرى الموت يتوفى الرقاب، لكنّه يضعف عندنا الإيمان واليقين أنه لابد أن يمر علينا وأنه لا بد أن نذوق مرارته وأن نجد شدته وأن نفارق هذه الدنيا، إنّ هذا مما نغفل عنه، ذلك كله بسبب ما طرأ على قلوبنا من الذنوب والسيئات التي أورثتنا الغفلة والإعراض عن دين الله جَلَّوَعَلَا وعبادته.

أَلَـمْ يقل النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم: «**أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَادِمِ اللَّذَّاتِ**»، يَعْنِي الْمَوْتَ [أخرجه ابن ماجة (٤٢٥٨)، من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]، إنّه ما ذكره أحد في ضيق من العيش إلا وسّعها عليه، ولا ذكره أحدا في سعة من العيش إلا وضيّقها عليه.

تذكّر يا عبدالله أنك سترحل فريدا وحيدا، لا مال ولا جاه ولا عشيرة ولا قبيلة، تترك كل ذلك وراء ظهرك، أول ما تفارق الحياة، يُبادر أهلك في تجهيزك، في تغسيلك، في تكفينك، في الصلاة عليه، ثم يسرعون إلى مواراتك ومفارقتك.

«يَتْبَعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثَةٌ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ: يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَى عَمَلُهُ» [أخرجه البخاري (٦٥١٤)، ومسلم (٢٩٦٠)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]. هل تذكرنا هذه اللحظات التي نفارق فيها هذه الدنيا، التي نفارق فيها المأكل والمشرب والمطعم، التي نفارق فيها الأطفال والزوجات، التي نفارق فيها الأحباب؟ هل تصوَّرنا هذه اللحظات العظيمة، فيكون عونا لنا على الرجوع إلى الله تبارك وتعالى؟

قال الله عَزَّوَجَلَّ في سورة القيامة: ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ [القيامة]، إذا وصلت الروح للحلقوم يُبحَث لهذا المريض عن الدواء، يُسْعَى به إلى المستشفيات من يرقيه؟ مَن يعالجه؟ من ينقذه؟ من يَدْفَع عنه هذا الخطب العظيم؟ هنا وهناك يُسعى في إنقاذه، ﴿ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ ﴾ [القيامة]، هنا حصحص الحقّ، والتفت الساقان، وأيقن بفراق الدنيا وأهلها، هاتان القدمان التي طالما سعيت بهما، في تلك اللحظة، لا تستطيع أن تقوم عليهما.

﴿ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [القيامة]، قال بعض أهل العلم: أي التقى آخر يوم من أيّام الدنيا بأوّل يوم من أيّام الآخرة، وما هو الفرق العظيم والبون الشاسع بين اليوم الأول واليوم الثاني؟ اليوم الأول وأنت تتنعم في دارك، وبين أهلك وأحبابك، في سرور وحبور وطعام وشراب.

وفي الليلة الثانية في حفرة مظلمة، لا أنيس ولا جليس.

وقال بعض أهل التفسير: عند الموت تلتف إحدى الساقين على الأخرى، لا يستطيع رفعها، ولا القيام عليها، إذا فلنتذكر عباد الله هذه اللحظات التي نرحل فيها من الدنيا إلى الآخرة. فهل نحن ممن أعَدّ العدّة للقاء الله تبارك وتعالى؟ نحن نؤمن بالموت ونؤمن

بأنّه الحق. لكن أين الاستعداد للرحيل؟ أين الاستعداد للرحيل ومقابلة رب العالمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟ أين الاستعداد لهذه اللحظات العظيمة، التي أخبرنا الله عَزَّوَجَلَّ عنها في كتابه الكريم.

قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ۝٢ ﴾ [الحج].

هل قرأت هذه الآية؟ هل تذكرتها؟ هل تفكرت في معانيها؟ للأسف أنّنا نقرأ القرآن وكأنه جريدة من الجرائد أو كتاب من المؤلفات ولكن هو كلام رب العالمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي: ﴿ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ۝٤٢ ﴾ [فصلت].

كلام رب العالمين، الذي قال الله عنه: ﴿ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١ ﴾ [الحشر].

هل تذكّرت في هذه المشاهد، كيف يكون حال العباد يوم العرض والمعاد، يوم الوقوف بين يدي الله تبارك وتعالى، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦ ﴾ [المطففين].

الناس أجمعون من لدن آدم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها، يقومون لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، «**فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي وَيَنْفُذُهُمُ البَصَرُ**» [أخرجه البخاري (٤٧١٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]، في يوم أخبر الله أنّه يوم الدين، يوم الجزاء، يوم الحساب، يوم يحصحص فيه الحق، ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ۝٤٦ ﴾ [فصلت].

◈ الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، حمدًا كثيرًا طيِّبًا مباركًا فيه، كما يُحِبّ ربنا ويرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

أمّا بعد، فيا أيها الناس، عباد الله كلّنا مسلمون، وكلّنا مؤمنون، وكلنا موحدون، وكلنا موقنون بكلام الله عَزَّوَجَلَّ، وبكلام رسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

وما دام أن الأمر كذلك: أنّ الموت حق وأنّ لقاء الله حق، وأنّ الله عَزَّوَجَلَّ مُوقِفُنا في يوم عظيم، وسائلنا عن كل صغير وكبير. لماذا نغالط أنفسنا في هذه الحياة الدنيا؟ في عمر قصير يفنى وفي أيام تذهب من بين أيدينا. كم عسانا نتعمر في هذه الحياة الدنيا؟ كم عساك أن تعيش؟ إنّك لن تبلغ المائة، وإن بلغت المائة فإنها أيام فانية قليلة مقابل تلك الحياة السرمدية الأبدية، ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٦٤ ﴾ [العنكبوت].

إذًا فلماذا لا نصحو من غفلتنا، ونقوم من رقدتنا، ونحاسب أنفسنا؟ أيام قليلة، لماذا تذهب من أيدينا، وتذهب من أعمارنا، وتضيع علينا؟ إلى متى ونحن نغالط أنفسنا؟ نظهر الصلاح والخير، والله أعلم بما في الضمائر، نظهر الخير للغير، والله أعلم بما في أنفسنا.

هل أنت مستعدا للقاء الله عَزَّوَجَلَّ في هذه اللحظة؟ هل أنت موقن أن تفوز الجنة؟ هل أنت مستعد لسؤال منكر ونكير وللسؤال عن العمر والشباب والحياة والمال والعلم وسائر النعم؟ قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ: «**لَا تَزُولُ قَدَمُ ابْنِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ، عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ، وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ**» [أخرجه الترمذي (٢٤١٦)، من حديث ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ]، ما هو قوله؟

وفي رواية: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ**» [وبهذا اللفظ أخرجه الترمذي (٢٤١٧)، من حديث أَبِي بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]؛ ليس هناك محامون ولا وساطات ولا رشاوي ولا قبيلة ولا عشيرة ولا جاه ولا شيء من أمور الدنيا.

في ذلك اليوم، لا يظلم أحد، كُلٌّ يُؤخذ بجريرته، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة]، هكذا يقول ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فالاستعداد الاستعداد، والإقبال على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، إيّاك أن تكون مع الناس، إن أحسنوا أحسنت، وإن أساءوا أسأتَ؛ بل لازم الإحسان، وأقبل على طاعة الرحمن.

واعلم أنك ستموت وحدك، وتُبعَث وحدك، وتسأل وحدك، لا تسأل عن أعمال العباد، تسأل عن أعمالك وأقوالك وأفعالك، وتحاسب عليها تقرأ، قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝١٠﴾ [الحج].

وقال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥﴾ [الإسراء].

ويقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٢٨ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٢٩﴾ [الجاثية].

فمن كان يؤمن ويعلم أن الحساب موعده، وأنّ الربّ محاسبه، وأنّ الرسول شاهد عليه بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ، لماذا يرفض طاعة الله؟ لماذا يتمرد على أوامر الله؟ لماذا يترك ما أوجب الله؟ لماذا؟ لماذا؟ ولماذا؟

إذًا فعلينا أن نعود إلى الله، وأن نحاسب أنفسنا قبل أن نحاسب، وأن نَزِنَ أعمالنا قبل أن توزنَ علينا، وأن نرفع رؤوسنا بالإيمان والقرآن والتوحيد والإسلام، وأن نعمل بذلك ظاهرا وباطنا كما أمر الله جَلَّوَعَلَا: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الذاريات].

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ بمنِّه وكرمه وجوده وإحسانه، أن يأخذ بأيدينا إلى البر والتقوى، وأن يصلحنا ظاهرا وباطنا، وأن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل، وأن يجعلنا ممن يُعِدّ العُدَّة للقائه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وأن يحفظنا من الشرور والفتن ما ظهر منها وما بطن.

اللهم أعزّ الإسلام والمسلمين، اللهم اجمع كلمة المسلمين على الحق المبين يا قوي يا متين. اللهم ادفع عنا وعن بلادنا وعن سائر بلاد المسلمين الفتن ما ظهر منها وما بطن، إنّك على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير؛ والحمد لله رب العالمين.

[٢] سكرات الموت

◈ الخطبة الأولى:

إنّ الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾[آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١ ﴾ [الأحزاب].

أما بعد، فإنّ أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون عباد الله، يقول الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم: ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ١٨٥ ﴾ [آل عمران].

يُبيِّن الله عَزَّوَجَلَّ في هذه الآية أنّه ما نفس منفوسة إلّا وستذوق مرارة الموت وتفارق هذه الدنيا من جن وإنس وملائكة، ومن سائر المخلوقات.

ولهذا يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ٢٦ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ٢٧ ﴾ [الرحمن]، وقال تعالى: ﴿ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ ﴾[القصص: ٨٨].

فإذَا عَلِمَ العبد أنّه من هذه الدنيا لابد أن يرحل، وأن يفارق الأهل والأحباب والمال والدار، فإنّه يجب عليه أن يُعِدّ العُدَّة للقاء الله عَزَّوَجَلَّ، مهما تعمرت في الدنيا، مهما تدرَّعت وتسترت، مهما ملكت من الأموال والقصور والدور؛ فإنّه لا بد أن ترجع إلى الله تبارك وتعالى، ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]، هكذا يقول الله عَزَّوَجَلَّ.

وقد قضى الله عَزَّوَجَلَّ آجال العباد وهم في بطون أمهاتهم، فلا يستأخرون عن آجالهم ساعة ولا يستقدمون ساعة، بل إذا جاء الأجل وقضي الأمر وحان الوعد انتقل العبد من هذه الدنيا إلى الآخرة.

كم ذكَّرنا الله عَزَّوَجَلَّ بالموت؟ وكم بيّن لنا هذا المصير الذي لا مصير إلا هو ولا طريق إلا إليه، لا يستطيع أحد أن يفر منه. كم ذكَّرنا النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، بل يقول لنا: «**أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ**» [أخرجه أحمد (٧٩٢٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]. ويقول كما في «صحيح مسلم»: «**فَزُورُوا الْقُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْمَوْتَ**» [أخرجه مسلم (٩٧٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]، ويقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**إِنِّي كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا؛ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْآخِرَةَ**» [أخرجه أحمد (٢٣٠٠٥)، من حديث بُرَيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

فإنَّ مَن تذكَّرَ الرحيل من الدنيا والانتقال إلى الله عَزَّوَجَلَّ، حمَلَه ذلك على الإقامة على طاعة الله، والمبادرة بأداء الواجبات والابتعاد عما نهى الله عَزَّوَجَلَّ عنه من المحرمات، ومَن غفل عن الموت فإنّه يتسلط عليه الشيطان، فيقوده إلى كل شر ورذيلة، ويبعده عن كل خير وفضيلة.

أيها المؤمنون عباد الله، حديثنا معكم في هذه اللحظات ليس عن الموت بشكل عام، وإنّما عن لحظة من لحظاته ووقت من أوقاته، وهو عن سكرات الموت، عن تلك اللحظات العظيمة التي يرحل العبد فيها من الدنيا إلى الآخرة، عن سكرات الموت التي لابد أن نجدها، ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ في الآية المتقدمة: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾

﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران].

يقول الإمام القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنّ الله عَزَّوَجَلَّ قد ذكر في كتابه الكريم سكرات الموت وشدة الموت وغمرات الموت في أربع آيات أو في أربعة مواضع من كتاب الله تبارك وتعالى:

أما الموضع الأول: فيقول الله عَزَّوَجَلَّ في سورة ﴿قٓ﴾: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾ [ق]؛ هذه السكرة وهذا الموعد وهذه اللحظة التي طالما حاد عنها العباد وتغافل عنها الناس وأعرضوا عنها، هذا الوقت الذي ربما تناسيته وربما تجاهلته، ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾، أو أنّ المعنى هذا الذي لا محيد لك عنه ولا فرار لك منه.

إنّ سكرة الموت – عباد الله – شأنها عظيم، وألمها شديد، ولهذا يقول بعض السلف: هو أَشَدّ من النشر بالمناشير ومن نزع الشوك من الصوف، وكما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ كما في حديث البراء بن عازب: «**إِنَّ العبدَ المؤمن إذا كان في انْقِطَاعٍ من الدُّنْيَا، وإِقْبالٍ من الْآخِرَةِ، نزل إليه من السَّمَاءِ ملائكةٌ بِيضُ الوجُوهِ، كأَنَّ وجوهَهُمُ الشمسُ، معهُمْ كفنٌ من أَكْفَانِ الجنَّةِ، وحَنُوطٌ من حَنُوطِ الجَنَّةِ، حتى يَجْلِسُوا منه مَدَّ البَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ المَوْتِ حتى يَجلِسَ عندَ رأسِه فيَقولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ اخْرُجِي إلى مغْفِرةٍ من الله ورِضْوَانٍ، فتخْرُجُ تَسِيلُ كما تسِيلُ القَطْرَةُ من فِي السِّقَاءِ...**»، وفيه: «**وإِنَّ العبدَ الكافِرَ إذا كان في انقِطَاعٍ من الدنيا، وإقبالٍ من الآخِرةِ، نزل إليه من السماءِ ملائكةٌ سُودُ الوجُوهِ معَهُمُ المُسُوحُ، فيجلِسُونَ منه مَدَّ البَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الموتِ حتى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ: يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ اخْرُجِي إلى سَخَطٍ من الله وغَضَبٍ، فَتَفْرُقُ في جَسَدِهِ فيَنتَزِعُهَا كَما يُنتَزَعُ السَّفُّودُ من الصُّوفِ المَبْلُولِ...**» الحديث [كما في «صحيح الجامع» (١٦٧٦) للعلامة الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ].

«**فَيَنتَزِعُهَا كَمَا يُنتَزَعُ السَّفُّودُ من الصُّوفِ المَبْلُولِ**»؛ أي أنها تخرج بشدة، وتُنزع بِشِدَّة فيجد العبد ألمها ويجد العبد شدتها.

وهكذا الآية الثانية: ما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ في سورة الأنعام، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنعام]، هكذا يُنادَى مَن أعرض عن الله عَزَّوَجَلَّ لما كانوا في غمرات الموت، قال الإمام ابن كثير: أي في شدته وفي سكراته وفي غمراته، تناديهم الملائكة بإخراج أنفسهم، بإخراج أرواحهم من أجسادهم.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام: ٩٣]، تذكر يا أيها المسلم، ومَثِّل لنفسك هذه اللحظات، وقد اقترب منك ملك الموت، وهو يناديك بمثل هذا النداء: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنعام].

وأما الآية الثالثة: قال الله عَزَّوَجَلَّ في سورة الواقعة: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الواقعة]، تصور يا أيها المسلم، وأنت منطرح على الفراش، وقد بلغت روحك الحلقوم، وجاءك الأقارب والأباعد، اجتمع عند رجليك أبناؤك الصغار وأهلك وزوجتك، وهم ينظرون إليك يريدون مساعدتك، ولكن هيهات هيهات، فإنّه قد حان الفراق.

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ [الواقعة]، قال المفسرون: أي ملائكتنا، ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الواقعة]، حالك في ذلك الموضع، تسأل فلا تجيب، تخاطب فلا تستطيع الإجابة، تنتظر

الرحيل من هذه الحياة الدنيا، الذي يسافر من بلد إلى بلده وهو في انتظار إقلاع الطائرة، ينتظر في صالة الانتظار، أما الراحل من الدنيا إلى الآخرة فإنه يوقف في ساعة الاحتضار وهو ينتظر مفارقة الروح للجسد.

تصور وأهلك وأبناؤك وكلهم يحبونك يريدون مساعدتك، يأتي ولدك الصغير ويناديك: إلى أين يا أبتي؟ قال بعضهم كما ذُكِر عن عمر بن عبد العزيز وهو يصف حال الرجل وأبناؤه يناشدونه ويودعونه:

وأقْبَلَتِ الصُّغرى تُمَرِّغُ خدَّها ... على وجْنتي حينًا وحينًا على صَدْري

وتَخمشُ خدَّيها وتَبكي بحُرْقةٍ ... تُنادي: أبي إني غُلِبْتُ على الصَّبْر

حَبيبي أبي مَنْ للِيتَامى تركتَهمُ ... كأفراخ زُغْب في بعيدٍ من الوَكر

يُنَادونك إلى أين يا أبتاه؟ إلى أين تذهب؟ ما الذي أصابك؟ وأنت في سكرات الموت، وأنت في هذه الحالة لا تستطيع حِرَاكا ولا دفاعا، ولا تستطيع أن تقدم شيئا، ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الواقعة].

وأما الآية الرابعة: فيقول الله عَزَّوَجَلَّ في سورة القيامة: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ [القيامة]، إذا وصلت الروح إلى الحلقوم، وأرادت أن تخرج وأن تفارق الجسد، اجتمع حولك أقاربك وأرادوا علاجك ورقيتك، يبحثون لك عن الدواء، ويطلبون الأطباء ويسعفونك إلى المستشفيات هنا وهناك.

﴿وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾﴾ [القيامة]، والظنّ في هذه الآية بمعنى اليقين، أيقن أنّه مفارق لهم، لكنه لا يستطيع حديثهم ولا مخاطبتهم لأنّه في سكرة الموت، وفي شدة الموت. تصور هذه اللحظة يا عبد الله، ماذا أعددت لها؟ قال النبي

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ الله يقبلُ توبةَ العبدِ ما لم يُغرغرْ**» [أخرجه الترمذي (٣٥٣٧)، من حديث عبد الله بن عمر، بسند حسن]. فهل أقبلت على الله عَزَّوَجَلَّ قبل فوات الأوان، وقبل أن تصير إلى حال الغرغرة.

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾ [القيامة]، قال بعض المفسرين: التقى آخر يوم من أيام الدنيا بأوّل يوم من أيّام الآخرة. وما أشَدّ الفرق بين اليومين، يوم وأنت في دارك تفرح وبين أولادك تمرح وعلى فرش جميلة وتأكل المآكل الحسنة؛ وفي الليلة الأخرى وأنت في ظلمة وفي تلك الحفرة، ليس لك أنيس ولا جليس ولا قريب ولا بعيد، تلف في لفافة بيضاء فيأتيك ملكان أسودان أزرقان، يقال لأحدهما منكر وللآخر نكير، يقال لك: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فما أعظم الفرق بين الليلتين؟ ﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾ [القيامة].

يا أيها الناس إنّ الموت عظيم، وإنّ سكراته شديدة حتى على أهل الإيمان والصلاة فكيف بغيرهم؟

روى وكيع من حديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**تَحَدَّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَإِنَّهُ كَانَ فِيهِمُ الْأَعَاجِيبُ**» ثُمَّ أَنْشَأَ يُحَدِّثُ، قَالَ: «**خَرَجَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ حَتَّى أَتَوْا مَقْبَرَةً مِنْ مَقَابِرِهِمْ، فَقَالُوا: لَوْ صَلَّيْنَا وَدَعَوْنَا الله، فَأَخْرَجَ لَنَا رَجُلًا مِمَّنْ قَدْ مَاتَ، نُسَائِلُهُ عَنِ الْمَوْتِ، فَفَعَلُوا، فَبَيْنَا هُمْ كَذَلِكَ إِذَا اطَّلَعَ رَجُلٌ رَأْسَهُ مِنْ قَبْرٍ مِنْ تِلْكَ الْمَقَابِرِ، خِلَاسِيٌّ بَيْنَ عَيْنَيْهِ أَثَرُ السُّجُودِ، فَقَالَ: يَا هَؤُلَاءِ مَا أَرَدْتُمْ، إِنَّنِي لَقَدْ مِتُّ مُذْ مِائَةِ عَامٍ، فَمَا سَكَنَتْ عَنِّي حَرَارَةُ الْمَوْتِ حَتَّى كَانَ الْآنَ، فَادْعُوا الله يُعِدْنِي كَمَا كُنْتُ**» [أخرجه وكيع بن الجراح في «الزهد» (٥٦)، والخطيب في «الجامع لآداب الراوي وأخبار السامع» (١٣٤٩)، وصححه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ].

«**خِلاسِيّ**»، أي أنّه بين السواد والبياض.

إذا فأين الإعداد يا عباد الله؟ وأين الإقبال على الله عَزَّوَجَلَّ ونحن لا بد أن نمر بهذه اللحظات، ولابد أن تأتي علينا هذه الأوقات رجالا ونساءً، كبارا وصغارا، كما أخبر الله

عَزَّوَجَلَّ في الآية المتقدمة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١١ ﴾ [المنافقون].

◈ الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، حمدًا كثيرًا طيِّبًا مباركًا فيه، كما يُحِبّ ربنا ويرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

أمّا بعد، يا أيها الناس، إنّ الذي يقرأ في كتب التراجم والسير وخصوصًا في سيرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وسير أصحابه الكرام يجد أمورا عجيبة من شدة سكرات الموت على أهل الإيمان فضلا عن غيرهم.

فهذا نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، جاء عنه كما في «صحيح البخاري» من حديث عائشة، تَقُولُ: إِنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كَانَ بَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ - أَوْ عُلْبَةٌ فِيهَا مَاءٌ، يَشُكُّ عُمَرُ - فَجَعَلَ يُدْخِلُ يَدَيْهِ فِي المَاءِ، فَيَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ، وَيَقُولُ: «**لاَ إِلَهَ إِلَّا الله، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ**» [أخرجه البخاري (٦٥١٠)].

«**لاَ إِلَهَ إِلَّا الله، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ**»؛ هذا نبينا صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم خليل الله الذي بَشَّره الله عَزَّوَجَلَّ بالجنة وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، والذي زَكَّى الله عَزَّوَجَلَّ فؤاده وزَكَّى خلقه وزَكَّى قلبه، ومع ذلك يقول: «**لاَ إِلَهَ إِلَّا الله، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ**».

وتقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «مَا أَغْبِطُ أَحَدًا بِهَوْنِ مَوْتٍ بَعْدَ الَّذِي رَأَيْتُ مِنْ شِدَّةِ مَوْتِ رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ» [أخرجه الترمذي (٩٧٩)، بسند صحيح].

تأتي إليه فاطمة ابنته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وتقول: وَا كَرْبَ أَبَاهُ، فَقَالَ لَهَا: «**لَيْسَ عَلَى أَبِيكِ كَرْبٌ بَعْدَ اليَوْمِ**»، فَلَمَّا مَاتَ قَالَتْ: يَا أَبَتَاهُ، أَجَابَ رَبًّا دَعَاهُ، يَا أَبَتَاهْ، مَنْ جَنَّةُ الفِرْدَوْسِ، مَأْوَاهْ يَا أَبَتَاهْ إِلَى جِبْرِيلَ نَنْعَاهْ؛ [أخرجه البخاري (٤٤٦٢)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

«**لَيْسَ عَلَى أَبِيكِ كَرْبٌ بَعْدَ اليَوْمِ**»، أي أنّه عند سكرات الموت كان في كرب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ. ولهذا يقول لها: «**لَيْسَ عَلَى أَبِيكِ كَرْبٌ بَعْدَ اليَوْمِ**».

وهذا أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه كما جاء عَنِ الْبَهِيِّ قَالَ: «لَمَّا احْتُضِرَ أَبُو

بَكْرٍ، جَاءَتْ عَائِشَةُ فَتَمَثَّلَتْ بِهَذَا الْبَيْتِ:

لَعَمْرُكَ مَا يُغْنِي الثَّرَاءُ عَنِ الْفَتَى إِذَا حَشْرَجَتْ يَوْمًا وَضَاقَ بِهِ الصَّدْرُ

فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ فَقَالَ: لَيْسَ كَذَاكَ، وَلَكِنْ قُولِي: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾ [ق]، انْظُرُوا ثَوْبَيَّ هَذَيْنِ فَاغْسِلُوهُمَا وَكَفِّنُونِي فِيهِمَا؛ فَإِنَّ الْحَيَّ أَحْوَجُ إِلَى الْجَدِيدِ مِنَ الْمَيِّتِ» [أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «المحتضرين» (ص/ ٥١) (٣٦)، بسند جيّد].

وهذا عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ رضي الله تعالى عنه؛ يَقُولُ: «عَجَبًا لِمَنْ نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ، وَعَقْلُهُ مَعَهُ كَيْفَ لَا يَصِفُهُ»، فَلَمَّا نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ، قَالَ لَهُ ابْنُهُ عَبْدُ الله: فَصِفْ لَنَا الْمَوْتَ وَعَقْلُكَ مَعَكَ. فَقَالَ: «يَا بُنَيَّ، الْمَوْتُ أَجَلُّ مِنْ أَنْ يُوصَفَ، وَلَكِنِّي سَأَصِفُ لَكَ مِنْهُ شَيْئًا أَجِدُنِي كَأَنَّ عَلَى عُنُقِي جِبَالُ رَضْوَى، وَأَجِدُنِي كَأَنَّ فِي جَوْفِي شَوْكُ السِّلَاحِ، وَأَجِدُنِي كَأَنَّ نَفْسِي تَخْرُجُ مِنْ ثَقْبِ إِبْرَةٍ» [أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٥٩١٥)].

وهكذا الصالحون يا معاشر المؤمنين، يَجِدُون شِدّة الموت وعِظَم الموت، فهذا عمر بن الخطاب الفاروق رضي الله لما طعنه أبو لؤلؤة المجوسي، كما يقول وَلَدُهُ عبد الله: كَانَ رَأْسُ عُمَرَ عَلَى فَخِذِي فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ فَقَالَ: «ضَعْ رَأْسِي عَلَى الْأَرْضِ، فَقُلْتُ: مَا عَلَيْكَ كَانَ عَلَى الْأَرْضِ، أَوْ كَانَ عَلَى فَخِذِي؟ فَقَالَ: لَا أُمَّ لَكَ ، ضَعْهُ عَلَى الْأَرْضِ ، فَوَضَعْتُهُ عَلَى الْأَرْضِ ، فَقَالَ: وَيْلِي وَوَيْلُ أُمِّي إِنْ لَمْ يَرْحَمْنِي رَبِّي عَزَّوَجَلَّ» [أخرجه ابن زبر الربع في كتاب «وصايا العلماء عند حضور الموت» (ص/ ٣٧)، وأبو داود في «الزهد» (٤٤)]؛ وكما في «صحيح البخاري» من حديث عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ وفيه: «...وَجَاءَ رَجُلٌ شَابٌّ، فَقَالَ: أَبْشِرْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِبُشْرَى الله لَكَ، مِنْ صُحْبَةِ رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وَقَدَمٍ فِي الإِسْلاَمِ مَا قَدْ عَلِمْتَ، ثُمَّ وَلِيتَ فَعَدَلْتَ، ثُمَّ شَهَادَةٌ، قَالَ: وَدِدْتُ أَنَّ ذَلِكَ كَفَافٌ لاَ عَلَيَّ وَلاَ لِي...» الحديث [أخرجه البخاري (٣٧٠٠)].

وهكذا الصالحون، إذًا فهي لحظات حرجة ومواقف صعبة، يجب أن نتذكرها، يجب

أن نتذكر ساعة الرحيل والانطلاق من هذه الحياة الدنيا.

ذكر الإمام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «البداية والنهاية» في ترجمة هارون الرشيد: «إنه لما احتضر قال: اللهمّ انْفَعْنَا بِالْإِحْسَانِ، وَاغْفِرْ لَنَا الْإِسَاءَةَ، يَا مَنْ لَا يَمُوتُ ارْحَمْ مَنْ يَمُوتُ. وَكَانَ مرضه بالدم، وقيل بالسيل، وجبريل الطبيب يكتم مَا بِهِ مِنَ الْعِلَّةِ، فَأَمَرَ الرَّشِيدُ رَجُلًا أَنْ يَأْخُذَ مَاءَهُ فِي قَارُورَةٍ وَيَذْهَبَ بِهِ إلى جبريل فيريه إياه، ولا يذكر له بول من هو، فان سأله قال: هو بول مريض عندنا. فلما رآه جبريل قَالَ لِرَجُلٍ عِنْدَهُ: هَذَا مِثْلُ مَاءِ ذَلِكَ الرَّجُلِ. فَفَهِمَ صَاحِبُ الْقَارُورَةِ مَنْ عَنَى بِهِ، فَقَالَ لَهُ: بالله عَلَيْكَ أَخْبِرْنِي عَنْ حَالِ صَاحِبِ هَذَا الْمَاءِ، فَإِنَّ لِي عَلَيْهِ مَالًا، فان كان به رجاء وإلا أخذت مالي مِنْهُ. فَقَالَ: اذْهَبْ فَتَخَلَّصْ مِنْهُ فَإِنَّهُ لَا يَعِيشُ إِلَّا أَيَّامًا. فَلَمَّا جَاءَ وَأَخْبَرَ الرَّشِيدَ بَعَثَ إِلَى جِبْرِيلَ فَتَغَيَّبَ حَتَّى مَاتَ الرَّشِيدُ.

وقد قال الرشيد وهو فِي هَذِهِ الْحَالِ:

إِنِّي بِطُوسَ مُقِيمٌ ... مَا لِي بِطُوسَ حَمِيمُ
أَرْجُو إِلَهِي لِمَا بِي ... فإنه بي رحيم
لقد أتى بي طوسا ... قَضَاؤُهُ الْمُحْتُومُ
وَلَيْسَ إِلَّا رِضَائِي ... وَالصَّبْرُ وَالتَّسْلِيمُ» اهـ.

[كما في «البداية والنهاية» (١٠/ ٢٢١) ط. دار الفكر].

وكما قيل:

إِنَّ الطَبِيبَ بِطِبِّهِ وَدَوائِهِ ... لا يَستَطيعُ دِفاعَ مَكروهٍ أَتى
ما لِلطَبيبِ يَموتُ بِالداءِ الَّذي ... قَد كانَ يُبرِئُ جُرحَهُ فيما مَضى
ذَهَبَ المُداوِي وَالمُداوَى وَالَّذي ... جَلَبَ الدَواءَ وَباعَهُ وَمَنِ اِشتَرى

هكذا حكم الله عَزَّوَجَلَّ بالموت على كل البشرية، بل على كل المخلوقات مهما تحرز

العبد ومهما تأخر ومهما تأمر، ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ٦٢﴾ [الأنعام].

فعلينا أن نتذكر لقاء الله، فإنّ: «**مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ الله أَحَبَّ الله لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ الله كَرِهَ الله لِقَاءَهُ**» [أخرجه البخاري (٦٥٠٧)، ومسلم (٢٦٨٤)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا].

فتَذَكَّر أنّك منتقل إلى الله جَلَّ وَعَلَا، وأنّك واقف بين يدي الله، وأنّك مسؤول عن الأعمال كلها صغيرها وكبيرها، لا يفوت منها شيء، ﴿وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٞ ٥٣﴾ [القمر]؛ فادعُ الله جَلَّ وَعَلَا أن يُهَوِّن عليك سكرات الموت وشدة الموت، وأن يختم لك بخاتمة حسنة، وأن يوفقك عند الموت وعند سكراته إلى أن تموت على التوحيد، فَإِنَّ «**مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ**» [أخرجه أحمد (٢٢٠٣٤)، من حديث مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]، وفي الحديث: «**لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، فَإِنَّهُ مَنْ كَانَ آخِرُ كَلِمَتِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا الله عِنْدَ الْمَوْتِ، دَخَلَ الْجَنَّةَ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ، وَإِنْ أَصَابَهُ قَبْلَ ذَلِكَ مَا أَصَابَهُ**» [أخرجه ابن حبّان في «صحيحه» (٣٠٠٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بسند حسّنه الألباني في «الإرواء»].

[٣] القبر أول منازل الآخرة

◈ الخطبة الأولى:

إنّ الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾[آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١ ﴾ [الأحزاب].

أما بعد، فإنّ أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون عباد الله، يقول الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ٣٤ ﴾ [لقمان]، في هذه الآية، يبين الله عَزَّوَجَلَّ مما ذكر فيها أن العباد لا يعلمون في وقت مصيرهم ولا في مكان قبض أرواحهم ولا زمانه، وأن ذلك أمره إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولهذا جاء عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كما عند الترمذي من حديث أَبِي عَزَّةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا قَضَى الله لِعَبْدٍ أَنْ يَمُوتَ بِأَرْضٍ جَعَلَ لَهُ إِلَيْهَا حَاجَةً، أو قَالَ: بِهَا حَاجَةً**» [أخرجه الترمذي (٢١٤٧)]، وعلى ذلك قال بعضهم:

مَشَـــيْنَاهَا خُطًـــى كُتِبَـــتْ عَلَيْنَـــا وَمَنْ كُتِبَتْ عَلَيْـهِ خُطًى مَشَـاهَا
وأرزاقٌ لَـنَـــا مـتفـرِّقـــــاتٌ فمـنْ لـم تأتـــهِ منَّـا، أتـاهَـــا
وَمَـــنْ كَانَـــتْ مَنِيَّتُـــهُ بِـــأَرْضٍ فَلَـيْسَ يَمُـوتُ فِي أَرْضٍ سِـوَاهَا

أيها المسلمون عباد الله، ليس حديثنا معكم عن الموت، ولكنه عن ما بعد الموت، فإنّ العباد ينتقلون من هذه الدار الدنيا إلى الدار الآخرة، فيوضعون في تلك الحفرة المظلمة التي لا أنيس فيها ولا جليس، إنّه القبر، إنّه ذلك المكان المظلم الذي يوضع فيه العبد وحيدًا فريدًا، لا مال ولا جاه ولا عشيرة ولا قبيلة ولا أبناء، وإنما يوضع رهين عمله، ولهذا فإنَّ نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لِشِدَّة هذا الأمر ولعِظَمِه على النفوس رَخَّص لنا، بل أمرنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن نزور القبور، فقد جاء في صحيح الإمام مسلم من حديث أبي هريرة، أنّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «**فَزُورُوا الْقُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْمَوْتَ**» [أخرجه مسلم (٩٧٦)].

وفي حديث بريدة عند أحمد والترمذي ومسلم أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِنِّي كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا؛ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْآخِرَةَ**» [وهذا لفظ أحمد (٢٣٠٠٥)]، وفي مسند أحمد من حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «**إِنِّي نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا، فَإِنَّ فِيهَا عِبْرَةً**...» [أخرجه أحمد (١١٣٢٩)]، وعند أحمد من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «...**نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، ثُمَّ بَدَا لِي أَنَّهَا تُرِقُّ الْقَلْبَ، وَتُدْمِعُ الْعَيْنَ، وَتُذَكِّرُ الْآخِرَةَ، فَزُورُوهَا وَلَا تَقُولُوا هُجْرًا**...» [أخرجه أحمد (١٣٤٨٧)].

حَثَّ على زيارة القبور لهذه الثمار العظيمة: الاتعاظ والرجوع إلى الله عَزَّوَجَلَّ، تذكر الموت، تذكر الآخرة. وما أكثر ما نرى القبور ونشاهدها ونحمل إليها الرجال والنساء، ولكن المتعظون قليل.

يا أيها المسلم، تذكر أنك ستُحمَل على أكتاف الرجال كما أنّك تَحمِل غيرك، يحملك

أقرب الناس إليك وأحبهم إليك، ثم يتخلون عنك ويبادرون في تغطيتك وفي تخليتك.

قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كما في الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه وأرضاه: «**يَتْبَعُ المَيِّتَ ثَلاَثَةٌ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ: يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَى عَمَلُهُ**» [أخرجه البخاري (٦٥١٤)، ومسلم (٢٩٦٠)].

تَصَوَّر هذا الموقف عبد الله، وقد اجتمع إليك أحَبّ الناس إليك يحملونك، ثم بادروا بالصلاة عليك ثم دفنك ثم يفارقونك، ثم لا يبقى أحد، ينطلقون لتقسيم المال الذي جمعته، وهكذا تترك وحيدا.

«**فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَى عَمَلُهُ**»، يكون رهين عمله في ذلك المكان المظلم، القبور ظلمة على أصحابها، كما قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة: أَنَّ امْرَأَةً سَوْدَاءَ كَانَتْ تَقُمُّ الْمَسْجِدَ - أو شَابًّا - فَفَقَدَهَا رَسُولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، فَسَأَلَ عَنْهَا - أو عَنْهُ - فَقَالُوا: مَاتَ، قَالَ: «**أَفَلَا كُنْتُمْ آذَنْتُمُونِي**» قَالَ: فَكَأَنَّهُمْ صَغَّرُوا أَمْرَهَا - أو أَمْرَهُ - فَقَالَ: «**دُلُّونِي عَلَى قَبْرِهِ**» فَدَلُّوهُ، فَصَلَّى عَلَيْهَا، ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ هَذِهِ الْقُبُورَ مَمْلُوءَةٌ ظُلْمَةً عَلَى أَهْلِهَا، وَإِنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يُنَوِّرُهَا لَهُمْ بِصَلَاتِي عَلَيْهِمْ**» [أخرجه مسلم (٩٥٦)].

«**تَقُمُّ الْمَسْجِدَ**» أي تُنَظِّفه وتَكْنُسُه؛ فماتت هذه المرأة بالليل فدفنها الصحابة ولم يزعجوا النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ولم يوقظوه، فلما علِم قال: «**أَفَلَا كُنْتُمْ آذَنْتُمُونِي**»...

«**إِنَّ هَذِهِ الْقُبُورَ مَمْلُوءَةٌ ظُلْمَةً عَلَى أَهْلِهَا**»، هذا يقوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وهو يتحدث عن هذه الصحابية الصالحة المؤمنة التي كان عملها تنظيف المسجد.

«**إِنَّ هَذِهِ الْقُبُورَ مَمْلُوءَةٌ ظُلْمَةً عَلَى أَهْلِهَا، وَإِنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يُنَوِّرُهَا لَهُمْ بِصَلَاتِي عَلَيْهِمْ**».

القبر أمره عظيم، ولهذا جاء عند الإمام ابن ماجة من طريق هَانِئٍ، مَوْلَى عُثْمَانَ، قَالَ: كَانَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ إِذَا وَقَفَ عَلَى قَبْرٍ يَبْكِي حَتَّى يَبُلَّ لِحْيَتَهُ، فَقِيلَ لَهُ: تَذْكُرُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ، وَلَا تَبْكِي، وَتَبْكِي مِنْ هَذَا؟ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «**إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ**

مَنَازِلِ الْآخِرَةِ، فَإِنْ نَجَا مِنْهُ، فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ، فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ» قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَا رَأَيْتُ مَنْظَرًا قَطُّ إِلَّا وَالْقَبْرُ أَفْظَعُ مِنْهُ» [أخرجه ابن ماجة (٤٢٦٧)].

المنازل الكثيرة والمشاهد العظيمة، القبر أوّلُها، وهو مِن أعظَمِها.

وجاء عند الإمام ابن ماجة من حديث البراء بن عَازب، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فِي جِنَازَةٍ، فَجَلَسَ عَلَى شَفِيرِ الْقَبْرِ، فَبَكَى، حَتَّى بَلَّ الثَّرَى، ثُمَّ قَالَ: «يَا إِخْوَانِي لِمِثْلِ هَذَا فَأَعِدُّوا» [أخرجه ابن ماجة (٤١٩٥)].

يا أيها الناس، ما الذي أعددناه لظلمة القبر، ما الذي أعددناه للبعث والنشور؟ ما الذي أعددناه لذلك اليوم العظيم الذي نوضع فيه تحت أجداث الثرى؟

يا أيها الناس، إنّه ليس بالأمر اليسير حتى نتغافل عنه وحتى نعرض عنه، ما من أحد إلا ويمر بما سيمر به أهل القبور سواء دفن في الأرض أو مات في البحر أو أكلته السباع أو أحرقته النيران، فإنّه لا بد من الإيمان أنّ ما من عبد إلّا وسيمر عليه ما يمر على أهل القبور من الأهوال العظام والأمور الجسام التي ذكرت في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وفي سنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

القبور أمرها قديم جدا، ولكنه لا يعلم أول من بدأ بحفر القبور ودفن الموتى؛ ذكر بعض أهل العلم: أن ابن آدم الأوّل هو أوّل من سَنَّ حفر القبور ودفن الأموات. ولكن هذا لا دليل عليه؛ وإن كان هو مِن أول ما ذكر الله في كتابه الكريم، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ

كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ [المائدة]؛ إلى آخر ما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ.

فكان هو من أوّل من دفن الموتى كما في هذه القصة العظيمة، وأخذ العبرة من ذلك الغراب الذي دفن أخاه.

◈ الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، حمدًا كثيرًا طيِّبًا مباركًا فيه، كما يُحِبّ ربنا ويرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

أمّا بعد، يا أيها الناس قد ذكر في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وفي سنة رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ تفاصيل ما يحصل للعباد في قبورهم، مما تقشعر له الأبدان، وتستيقظ له القلوب، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ٣٧﴾ [ق]؛ ولكننا نقرأ هذه الأدلة قراءة عابرة، ولا نتيقن معانيها، ولا نتدبر فيها.

الموتى في قبورهم تمر عليهم ثلاث مسائل، الواحدة أشَدّ من الأخرى.

أما المسألة الأولى: فهي ضَمَّة القبر.

وأما المسألة الثانية: فهي فتنة القبر، وهي سؤال الملكين.

وأما المسألة الثالثة: فهي عذاب القبر ونعيمه لمن كان له أهلا.

إذًا ليست القبور موتة لا سؤال بعدها ولا حساب ولا عقاب، وإنّما هي أمور عظيمة. أو مَا سمعت عبد الله أنه ما من أحد في قبره إلّا ويُضمُّ عليه قبره؛ فقد جاء في حديث عائشة، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ قَالَ: «**لِلْقَبْرِ ضَغْطَةٌ لَوْ نَجَا مِنْهَا أَحَدٌ، لَنَجَا مِنْهَا سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ**» [أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٣١١٢)، وصحّحه الألباني] - وفي رواية: - ضَمَّة -. ولِعِظَمِ هذه الضَّمَّة فإنّ أهل العلم اختلفوا هل ينجو منها الأنبياء؟ هل ينجو منها رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ أم لا؟ فَمِن قائلٍ: لا ينجو منها أحد لظاهر هذا الحديث، وَمِن قائل لا يدخل فيها النبي عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، فالخطاب لسائر العباد وهو لا يدخل فيها.

وأيًّا كان، فإنّ أمرها عظيم، «**الْحَمْدُ لله لَوْ نَجَا أَحَدٌ مِنْ ضَمَّةِ الْقَبْرِ لَنَجَا مِنْهَا سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ وَلَقَدْ ضُمَّ ضَمَّةً ثُمَّ فَرَّجَ الله عَنْهُ**» [وبهذا اللفظ، أخرجه إسحاق بن راهويه في «مسنده»

(١١٢٧)]؛ والضَّمَّةُ على حسب أحوال أهل القبور، فضَمَّة أهل الإيمان ليست كضَمَّة أهل الشقاق والنفاق والكفران، بل يختلفون على حسب إيمانهم وأحوالهم وإسلامهم وهذا أمر عظيم.

يا أيها المسلم، أنت في ذلك المكان الذي يضعك فيه أهلك، لا يتركون لك مجالا يمنة ولا يسرة، لا تستطيع أن تجلس فيه، ولا أن تقف، ولا أن تتحرك، وتصور وبينما أنت في ذلك المكان المظلم الذي قد تركك فيه الكل، وإذا بك يأتيك ملكان أسودان أزرقان، كما جاء من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا قُبِرَ أَحَدُكُمْ أو الإنسان، أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ، يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا: الْمُنْكَرُ وَالْآخَرُ: النَّكِيرُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ مُحَمَّدٍ؟ فَهُوَ قَائِلٌ مَا كَانَ يَقُولُ، فَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا قَالَ: هُوَ عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: إِنْ كُنَّا لَنَعْلَمُ إِنَّكَ لَتَقُولُ ذَلِكَ، ثُمَّ يَفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ ذِرَاعًا، وَيُنَوَّرُ لَهُ فِيهِ، فَيُقَالُ لَهُ: نَمْ فَيَنَامُ كَنَوْمَةِ الْعَرُوسِ الَّذِي لَا يُوقِظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ حَتَّى يَبْعَثَهُ الله مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ مُنَافِقًا قَالَ: لَا أَدْرِي كُنْتُ أَسْمَعُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا، فَكُنْتُ أَقُولُهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: إِنْ كُنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذَلِكَ، ثُمَّ يُقَالُ لِلْأَرْضِ: الْتَئِمِي عَلَيْهِ، فَتَلْتَئِمُ عَلَيْهِ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهَا أَضْلَاعُهُ، فَلَا يَزَالُ مُعَذَّبًا حَتَّى يَبْعَثَهُ الله مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ**»

[أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٣١١٧)].

وقال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، كما في حديث البراء بن عازب: «...**وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِهِمْ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ حِينَ يُقَالُ أَجِبْنَا يَا هَذَا مَنْ رَبُّكَ وَمَا دِينُكَ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ الله وَدِينِيَ الإسلام وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ. **فَنَادَاهُ مُنَادٍ: صَدَقْتَ؛ وَذَلِكَ قَوْلُهُ** عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم]...» الحديث [أخرجه عبد الله بن أحمد في «السنة» (١٤٤١)].

هذه الفتنة، هذا هو سؤال الملكين، يُقَالُ: «**مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟**»، فَمَنْ

ضيَّع دين الله، وأعرَض عن سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وعصى الله عَزَّوَجَلَّ، كيف يكون حاله؟ وماذا تكون إجابته؟

أما المؤمن: «**فَيَقُولُ: رَبِّيَ الله وَدِينِيَ الإسلام وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ».

وفي رواية: «**فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا، ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ، ثُمَّ يُنَوَّرُ لَهُ فِيهِ**» [أخرجه الترمذي (١٠٧١)، من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحسَّنه الألباني].

وأمّا الكافر، فقد أخرج أبو داود من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفيه: «**فَيَقُولَانِ: لَهُ مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ، لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ، لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ، لَا أَدْرِي، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ كَذَبَ، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ**» قَالَ: «**فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا**» قَالَ: «**وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ**» زَادَ فِي حَدِيثِ جَرِيرٍ قَالَ: «**ثُمَّ يُقَيَّضُ لَهُ أَعْمَى أَبْكَمُ مَعَهُ مِرْزَبَّةٌ مِنْ حَدِيدٍ لَوْ ضُرِبَ بِهَا جَبَلٌ لَصَارَ تُرَابًا**» قَالَ: «**فَيَضْرِبُهُ بِهَا ضَرْبَةً يَسْمَعُهَا مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ فَيَصِيرُ تُرَابًا**»؛ [أخرجه أبو داود في «سننه» (٤٧٥٣)].

إذا فالقبر أمره عظيم وليس باليسير، وإنما هذا طرف من ذكر الفتنة، وسيأتي حديثها في جُمَعٍ قادمة.

أيّها الناس، عباد الله، يجب علينا أن نتدبّر، ويجب علينا أن نتفكر أننا من هذه الدنيا راحلون، وعلى الله عَزَّوَجَلَّ مقبلون، وقبل ذلك بهذه الحفرة موقوفون ومسؤولون، فكيف يكون حالنا؟

يا أيها المؤمن تصور وأنت في ليلة في دارك تتنعم بصحة جيدة، تأكل وتشرب، تضحك مع أولادك وأهلك، وبينما أنت في الليلة التي في بعدها تحت أجداث الثرى في مكان مظلم موحش، تنتظر ماذا يقدم عليك، ليس معك أنيس ولا جليس ولا قريب ولا بعيد ولا أهل ولا مال. هل نتفكر بهذا عباد الله؟

وها نحن نشاهد الموتى ليلا ونهارا، صباحا ومساءً، ندفن الموتى هنا وهناك؛ لكن أين المتعظون المتدبرون؟

ولهذا حَثَّنا النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ على زيارة القبور، هل فعلت هذه العبادة ليتعظ قلبك وتلين نفسك وتتذكر لقاء الله جَلَّ وَعَلَا؟ «**فَزُورُوا الْقُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْمَوْتَ**» [أخرجه مسلم (٩٧٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ]، «**إِنِّي كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا؛ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْآخِرَةَ**» [أخرجه أحمد (٢٣٠٠٥)، من حديث بُرَيدة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ]، «**إِنِّي نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا، فَإِنَّ فِيهَا عِبْرَةً...**» [أخرجه أحمد (١١٣٢٩)، من حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ]، «**...نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، ثُمَّ بَدَا لِي أَنَّهَا تُرِقُّ الْقَلْبَ، وَتُدْمِعُ الْعَيْنَ، وَتُذَكِّرُ الْآخِرَةَ، فَزُورُوهَا وَلَا تَقُولُوا هُجْرًا...**» [أخرجه أحمد (١٣٤٨٧)، من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ]؛ هذا لمن كان من المعتبرين، وإلّا فإنّ من الناس مَن يَقِفُ على شفير القبر، وهو يضحك ويمزح ويمرح، وبعضهم ربما يشرب الدخان، ولا حول ولا قوة إلا بالله تعالى.

[٤] فتنة القبر

◈ الخطبة الأولى:

إنّ الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾[آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١ ﴾ [الأحزاب].

أما بعد، فإنّ أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون، كان حديثنا في الجمعة الماضية عن ما يتعلّق بالقبر، وفيه أنّ العباد يمرّون **بثلاث مسائل في قبورهم**:

أوّلها: ضمّة القبر، وتقدّم الحديث عنها.

وثانيها: فتنة القبر، وحديثنا اليوم عنها.

وثالثها: عذاب القبر ونعيمه.

فأما فتنة القبر فهي السؤال فيه، أنّ المرء يُسْأَلُ في قبره، «**يُقَالُ أَجِبْنَا يَا هَذَا مَنْ رَبُّكَ وَمَا دِينُكَ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟..**» الحديث [أخرجه عبد الله بن أحمد في «السنة» (١٤٤١)، من حديث البراء بن عازب].

وجاء في حديث البراء بن عازب في «صحيح البخاري»، وجاء عن آخرين من الصحابة الكرام رضي الله تعالى عنهم، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِذَا أُقْعِدَ الْمُؤْمِنُ فِي قَبْرِهِ أُتِيَ، ثُمَّ شَهِدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ:** ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧]» [أخرجه البخاري (١٣٦٩)، ومسلم (٢٨٧١)]. فذلك قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾ [إبراهيم].

السائل للعباد في القبر «**مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ، يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا: الْمُنْكَرُ وَالْآخَرُ: النَّكِيرُ**» [أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٣١١٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بسند صحيح].

فتنة القبر للأمم كلّها على قول جماهير أهل العلم. وها نحن نذكر لكم في هذا المقام حديثا عظيما عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم يذكر لنا فيه تلك الرحلة التي يمر بها العباد من عند سكرات الموت إلى أن يفتنوا في قبورهم، وكيف يكون حال المؤمن؟ وكيف يكون حال الكافر أو الفاجر والمنافق؟

روى الإمام أبو داود وابن أبي شيبة - واللفظ له -، قال: حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنِ الْمِنْهَالِ، عَنْ زَاذَانَ، عَنِ الْبَرَاءِ، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فِي جِنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ، وَلَمَّا يُلْحَدْ فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ، كَأَنَّمَا عَلَى رُءُوسِنَا الطَّيْرُ، وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ بِهِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: «**اسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ**»، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، أَوْ مَرَّتَيْنِ.

ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ بِيضُ الْوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، حَتَّى يَجْلِسُونَ مِنْهُ، مَدَّ الْبَصَرِ مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ فَيَقْعُدُ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ، فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا**

تَسِيلُ الْقُطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ، فَإِذَا أَخَذُوهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، حَتَّى يَأْخُذُوهَا فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ، وَذَلِكَ الْحُنُوطِ، فَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ، وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَكٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فَيَقُولُونَ: هَذَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا حَتَّى يَنْتَهُونَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَسْتَفْتِحُ فَيُفْتَحُ لَهُمْ فَيَسْتَقْبِلُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا حَتَّى يَنْتَهِيَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ؛ قَالَ: فَيَقُولُ اللهُ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ فِي السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى، فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ.

وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِي الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُولَانِ: مَا عَمَلُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ، وَآمَنْتُ بِهِ، وَصَدَقْتُ بِهِ، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ صَدَقَ عَبْدِي فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ فَيَأْتِيهِ مِنْ طِيبِهَا، وَرَوْحِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ حَسَنُ الثِّيَابِ طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتُ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: وَمَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ الَّذِي يَجِيءُ بِالْخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ، أَقِمِ السَّاعَةَ، حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي، وَمَالِي.

وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ مَعَهُمُ الْمُسُوحُ، حَتَّى يَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ: يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ اخْرُجِي إِلَى سَخَطِ اللهِ وَغَضَبِهِ قَالَ: فَتَفْرُقُ فِي جَسَدِهِ، قَالَ: فَتَخْرُجُ فَيَنْقَطِعُ مَعَهَا الْعُرُوقُ وَالْعَصَبُ كَمَا تُنْزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذُوهَا، فَإِذَا أَخَذُوهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ، طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا، فَيَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، فَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحٍ جِيفَةٍ، وُجِدَتْ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَكٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ؟

فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهِيَ بِهَا إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا فَيَسْتَفْتِحُونَ، فَلَا يُفْتَحُ لَهُ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠].

قَالَ: فَيَقُولُ الله عَزَّوَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي سِجِّينٍ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى، قَالَ: فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا، قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

قَالَ: فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ الْمَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهَا لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا دِينُكَ؟، فَيَقُولُ: هَاهَا لَا أَدْرِي قَالَ: فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَفْرِشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ، قَالَ: فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ، حَتَّى تَخْتَلِفَ عَلَيْهِ أَضْلَاعُهُ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، وَقَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتُ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ الَّذِي يَجِيءُ بِالشَّرِّ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ فَيَقُولُ: رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ، رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ» [أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٢٠٥٩)، وأبو داود في «سننه» (٤٧٥٣)].

هذا لفظ ابن أبي شيبة، وللحديث ألفاظ أخرى وزيادات، وهو حديث عظيم يُبيِّن فيه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ما يمر عليه العباد مؤمنهم وكافرهم في قبورهم.

وأنّ مما يمرون به أنّه يُقَال لهم من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ وهذه هي الفتنة، وهذا هو الاختبار الذي يختبر الله عَزَّوَجَلَّ العباد في قبورهم.

فمن أعرض عن دين الله، وفرَّط في كتاب الله، وأعرضَ عن سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فإنّه يُخشى عليه أن يقول في ذلك الموضع: «هَاهَا لَا أَدْرِي».

فينبغي لنا أن نحذر عباد الله، وأن نُعِدّ العُدَّة للقاء الله جَلَّوَعَلَا، وأن نُقبل على طاعة

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

◈ الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، حمدًا كثيرًا طيِّبًا مباركًا فيه، كما يُحِبّ ربنا ويرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

أمّا بعد، أيها الناس، جاء في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وفي سنة رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، أنّ الله عَزَّوَجَلَّ يختص من عباده أصنافا فينجيهم من هذه الفتنة، أي أنّهم لا يسألون ولا يفتنون في قبورهم، وهذه من الله تبارك وتعالى، العباد كلهم يُسألون، كلهم يفتنون وهناك من يُسَلِّمه الله وينجيه، والذين ذكروا في الأدلة:

أوّلهم وفي مقدِّمتهم أنبياء الله عَزَّوَجَلَّ **ورسله**، فإنّهم لا يسألون في قبورهم ولا يفتنون، لأن الأمم تسأل عنهم، ولهذا قال نبينا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ: «**فَبِي تُفْتَنُونَ، وَعَنِّي تُسْأَلُونَ**» [أخرجه أحمد (٢٥٠٨٩)، من حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا].

الصنف الثاني من لا يفتنون في قبورهم: الصِّدِّيقون ويدخل فيهم الأنبياء، فإنّهم في المرتبة الثانية بعد الأنبياء، فالصديقون لا يسألون عند جماهير أهل العلم. كما بين الله عَزَّوَجَلَّ مكانتهم ومرتبتهم ومنزلتهم في كتابه الكريم: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ٦٩﴾ [النساء].

فالصِّدِّيقون مُقَدَّمون على الشهداء، وقد جاء النص في سنة رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ أنّ الشهداء لا يُفتنون في قبورهم، فَالصِّدِّيقون من باب أولى.

الصنف الثالث: الشهداء؛ والشهداء حديثهم: عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ الله، مَا بَالُ الْمُؤْمِنِينَ يُفْتَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ إِلَّا الشَّهِيدَ؟ قَالَ: «**كَفَى بِبَارِقَةِ السُّيُوفِ عَلَى رَأْسِهِ فِتْنَةً**» [أخرجه النسائي (٢٠٥٣)، عن رجل مبهم، والحديث في «الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين» لشيخنا الوادعي رَحِمَهُٱللَّهُ].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١﴾ [التوبة]، فالشهداء الذين امتحنوا في الدنيا وقدّموا أنفسهم وأرواحهم من أجل الله تبارك وتعالى، يُسَلِّمهم الله في قبورهم فلا يفتنون، «**كَفَى بِبَارِقَةِ السُّيُوفِ عَلَى رَأْسِهِ فِتْنَةً**».

الصنف الذي بعده، وهو الرابع: المرابطون في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ **على ثغور أهل الإسلام الذين يموتون في رباطهم**، فإنّهم لا يُفتَنون في قبورهم إكرامًا من الله جَلَّوَعَلَا، جزاء لعملهم وتضحياتهم؛ روى الإمام مسلم من حديث سلمان الفارسي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ يَقُولُ: «**رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْفَتَّانَ**» [أخرجه مسلم (١٩١٣)].

«**وَأَمِنَ الْفَتَّانَ**» أي أنه يأمن من هذه الفتنة والامتحان والاختبار.

الصنف الخامس: غير المكلفين، وهذا مما اختلف فيه أهل العلم، وأعني بغير المكلفين الأطفال والمجانين؛ فإنّ من أهل العلم من يقول بأنّهم لا يفتنون في قبورهم.

قال جماعة من أهل العلم: بل إنهم يفتنون في قبورهم، وخصوصا الأطفال؛ ولكنهم يسألون فيجيبون على الصواب. ولهذا شرع الله عَزَّوَجَلَّ لأهل الإسلام أن يصلوا على الأطفال وأن يدعوا لهم أن يعيذهم الله عَزَّوَجَلَّ من فتنة القبر. وإن كانوا لا يمتحنون فما فائدة هذا الدعاء؟ ولكنهم يفتنون ثم يجيبون على الصواب؛ كما قال العلامة العثيمين.

إذًا فهؤلاء أصناف من الناس يكرمهم الله عَزَّوَجَلَّ، فيَسلمون من فتنة القبر. فهل نحن من هذه الأصناف؟ ألَا نخشى على أنفسنا عباد الله أن نفشل في ذلك الامتحان والاختبار، وفي تلك الفتنة؟

فعلينا أن نعود إلى الله، وأن نُقبِل على طاعة الله تبارك وتعالى ونحن نؤمن ونوقن ونعلم أنّنا لا بد أن نمر بهذه المرحلة، وأنّه ما من أحد مِنّا إلّا وسَيُجلس في قبره ويقال له: مَن ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟

نسأل الله السلامة والعافية في الدنيا والآخرة، والحمد لله رب العالمين.

[٥] عذاب القبر ونعيمه (١)

◈ الخطبة الأولى:

إنّ الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾[آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١ ﴾ [الأحزاب].

أما بعد، فإنّ أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون عباد الله، كان حديثنا معكم في الجمعة الماضية عن فتنة القبر وسؤال الملكين لكل ميت في قبره: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟

وحديثنا في هذا اليوم عن المسألة الثالثة التي يتعرض لها العباد في قبورهم، ألَا وهي عذاب القبر ونعيمه.

فإنّ العبد في قبره إما أن يُنَعَّم نعيما من نعيم الجنّة، وإما أن يعذب عذابا من جنس عذاب النار.

وقد تقَدَّمت الإشارة إلى ذلك في حديث البراء بن عازب وأنس بن مالك وغيرهما. وهذا من معتقد المسلمين الذي يجب أن يعتقدوه. ولهذا قال الإمام الطحاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في

«العقيدة الطحاوية»: «ونؤمن بعذاب القبر ونعيمه لمن كان له أهلا، وأن القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار».

يقول الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم عن فرعون وقومه: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر]. فهذه الآية تدل على أنّهم يُعذَّبون قبل يوم القيامة، وهذا هو عذاب القبر.

وقال الله عَزَّوَجَلَّ عن قوم نوح الذين كفروا به وصدوا عن سبيله ولم يؤمنوا به: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾ [نوح]، والفاء تفيد الترتيب والتعقيب؛ فعقب إغراقهم أدخلوا نارا، أي في عذابهم في قبورهم أو ما يكون في حكم ذلك.

ويقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السجدة]، على أحد التفسيرين في هذه الآية، فإن ممن طغى وتكبر وعتى من لم يعاقب في الدنيا، فيكون عذابه في قبره قبل أن يلقى ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وكم تجد الأحاديث عن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في ذلك، فقد أجمع أهل العلم أن أحاديث عذاب القبر متواترة، وهي كثيرة جدا. قد علمنا نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن نقول في كل صلاة في التشهد الأخير، ونستعيذ من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ليُبيِّن لنا أنّ هذا واقع لا محالة، وأنّ هذا حاصل لا محالة: «**إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعِذْ بِالله مِنْ أَرْبَعٍ يَقُولُ: اللهمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ**» [أخرجه مسلم (٥٨٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ].

وهكذا يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا، فَلَوْلَا أَنْ لَا تَدَافَنُوا، لَدَعَوْتُ الله أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ مِنْهُ**» ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ، فَقَالَ: «**تَعَوَّذُوا بِالله مِنْ عَذَابِ النَّارِ**» قَالُوا: نَعُوذُ بِالله مِنْ عَذَابِ النَّارِ، فَقَالَ: «**تَعَوَّذُوا بِالله مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ**» قَالُوا: نَعُوذُ بِالله مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ،... الحديث [أخرجه مسلم (٢٨٦٧)، من

حديث زيد بن ثابت].

وفي «الصحيحين» عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: دَخَلَتْ عَلَيَّ عَجُوزَانِ مِنْ عُجُزِ يَهُودِ الْمَدِينَةِ، فَقَالَتَا لِي: إِنَّ أَهْلَ الْقُبُورِ يُعَذَّبُونَ فِي قُبُورِهِمْ، فَكَذَّبْتُهُمَا، وَلَمْ أُنْعِمْ أَنْ أُصَدِّقَهُمَا، فَخَرَجَتَا، وَدَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ عَجُوزَيْنِ، وَذَكَرْتُ لَهُ، فَقَالَ: «**صَدَقَتَا، إِنَّهُمْ يُعَذَّبُونَ عَذَابًا تَسْمَعُهُ الْبَهَائِمُ كُلُّهَا**» فَمَا رَأَيْتُهُ بَعْدُ فِي صَلاَةٍ إِلَّا تَعَوَّذَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ؛ [أخرجه البخاري (٦٣٦٦)، ومسلم (٥٨٦)].

وكم تجد من الأحاديث الكثيرة التي فيها بيان عذاب القبر لمن كان له أهلا ولمن كان يستحقه. ولهذا قال عليه الصلاة: «**إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ، فَإِنْ نَجَا مِنْهُ، فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ، فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ**» قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**مَا رَأَيْتُ مَنْظَرًا قَطُّ إِلَّا وَالْقَبْرُ أَفْظَعُ مِنْهُ**» [أخرجه ابن ماجة (٤٢٦٧)، من طريق هانئ مولى عثمان عَن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

أيها المؤمنون عباد الله، لو حصر المتكلم الأحاديث التي فيها بيان عذاب أهل القبور لما كفاه مجلس ولا مجالس، ولا خطبة ولا خطب، ولكن حسبنا في هذا المقام أن نذكر حديثا عظيما، مما يعذب فيه أهل القبور بسبب أعمالهم السيئة؛ حديث أخرجه الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ، وأخرج أصله مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ.

قال الامام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: حَدَّثَنِي مُؤَمَّلُ بْنُ هِشَامٍ أَبُو هِشَامٍ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا عَوْفٌ، حَدَّثَنَا أَبُو رَجَاءٍ، حَدَّثَنَا سَمُرَةُ بْنُ جُنْدُبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ مِمَّا يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ لِأَصْحَابِهِ: «**هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ رُؤْيَا**» قَالَ: فَيَقُصُّ عَلَيْهِ مَنْ شَاءَ الله أَنْ يَقُصَّ، وَإِنَّهُ قَالَ ذَاتَ غَدَاةٍ: «**إِنَّهُ أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانِ، وَإِنَّهُمَا ابْتَعَثَانِي، وَإِنَّهُمَا قَالاَ لِي انْطَلِقْ، وَإِنِّي انْطَلَقْتُ مَعَهُمَا، وَإِنَّا أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ، وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِصَخْرَةٍ، وَإِذَا هُوَ يَهْوِي بِالصَّخْرَةِ لِرَأْسِهِ فَيَثْلَغُ رَأْسَهُ، فَيَتَدَهْدَهُ الحَجَرُ هَا هُنَا، فَيَتْبَعُ الحَجَرَ فَيَأْخُذُهُ، فَلاَ يَرْجِعُ إِلَيْهِ حَتَّى يَصِحَّ رَأْسُهُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ المَرَّةَ الأُولَى**» قَالَ: «**قُلْتُ لَهُمَا: سُبْحَانَ الله مَا هَذَانِ؟**»

قَالَ: «قَالاَ لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ» قَالَ: «فَانْطَلَقْنَا، فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُسْتَلْقٍ لِقَفَاهُ، وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِكَلُّوبٍ مِنْ حَدِيدٍ، وَإِذَا هُوَ يَأْتِي أَحَدَ شِقَّيْ وَجْهِهِ فَيُشَرْشِرُ شِدْقَهُ إِلَى قَفَاهُ، وَمَنْخِرَهُ إِلَى قَفَاهُ، وَعَيْنَهُ إِلَى قَفَاهُ، - قَالَ: وَرُبَّمَا قَالَ أَبُو رَجَاءٍ: فَيَشُقُّ -» قَالَ: «ثُمَّ يَتَحَوَّلُ إِلَى الجَانِبِ الآخَرِ فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ بِالجَانِبِ الأَوَّلِ، فَمَا يَفْرُغُ مِنْ ذَلِكَ الجَانِبِ حَتَّى يَصِحَّ ذَلِكَ الجَانِبُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلَ المَرَّةَ الأُولَى» قَالَ: «قُلْتُ: سُبْحَانَ اللهِ مَا هَذَانِ؟» قَالَ: «قَالاَ لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ، فَانْطَلَقْنَا، فَأَتَيْنَا عَلَى مِثْلِ التَّنُّورِ - قَالَ: فَأَحْسِبُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ - فَإِذَا فِيهِ لَغَطٌ وَأَصْوَاتٌ» قَالَ: «فَاطَّلَعْنَا فِيهِ، فَإِذَا فِيهِ رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ، وَإِذَا هُمْ يَأْتِيهِمْ لَهَبٌ مِنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ، فَإِذَا أَتَاهُمْ ذَلِكَ اللهَبُ ضَوْضَوْا» قَالَ: «قُلْتُ لَهُمَا: مَا هَؤُلاَءِ؟» قَالَ: «قَالاَ لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ» قَالَ: «فَانْطَلَقْنَا، فَأَتَيْنَا عَلَى نَهَرٍ - حَسِبْتُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ - أَحْمَرَ مِثْلِ الدَّمِ، وَإِذَا فِي النَّهَرِ رَجُلٌ سَابِحٌ يَسْبَحُ، وَإِذَا عَلَى شَطِّ النَّهَرِ رَجُلٌ قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ حِجَارَةً كَثِيرَةً، وَإِذَا ذَلِكَ السَّابِحُ يَسْبَحُ مَا يَسْبَحُ، ثُمَّ يَأْتِي ذَلِكَ الَّذِي قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ الحِجَارَةَ، فَيَفْغَرُ لَهُ فَاهُ فَيُلْقِمُهُ حَجَرًا فَيَنْطَلِقُ يَسْبَحُ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ كُلَّمَا رَجَعَ إِلَيْهِ فَغَرَ لَهُ فَاهُ فَأَلْقَمَهُ حَجَرًا» قَالَ: «قُلْتُ لَهُمَا: مَا هَذَانِ؟» قَالَ: «قَالاَ لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ» قَالَ: «فَانْطَلَقْنَا، فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ كَرِيهِ المَرْآةِ، كَأَكْرَهِ مَا أَنْتَ رَاءٍ رَجُلًا مَرْآةً، وَإِذَا عِنْدَهُ نَارٌ يَحُشُّهَا وَيَسْعَى حَوْلَهَا» قَالَ: «قُلْتُ لَهُمَا: مَا هَذَا؟»... الحديث.

إلى أن قال في آخره: قَالَ: «قُلْتُ لَهُمَا: فَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ مُنْذُ اللَّيْلَةِ عَجَبًا، فَمَا هَذَا الَّذِي رَأَيْتُ؟» قَالَ: «قَالاَ لِي: أَمَا إِنَّا سَنُخْبِرُكَ، أَمَّا الرَّجُلُ الأَوَّلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُثْلَغُ رَأْسُهُ بِالحَجَرِ، فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَأْخُذُ القُرْآنَ فَيَرْفُضُهُ وَيَنَامُ عَنِ الصَّلاَةِ المَكْتُوبَةِ، وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ، يُشَرْشَرُ شِدْقُهُ إِلَى قَفَاهُ، وَمَنْخِرُهُ إِلَى قَفَاهُ، وَعَيْنُهُ إِلَى قَفَاهُ، فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَغْدُو مِنْ بَيْتِهِ، فَيَكْذِبُ الكَذْبَةَ تَبْلُغُ الآفَاقَ، وَأَمَّا الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ العُرَاةُ الَّذِينَ فِي مِثْلِ بِنَاءِ التَّنُّورِ، فَإِنَّهُمُ الزُّنَاةُ وَالزَّوَانِي، وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يَسْبَحُ فِي النَّهَرِ وَيُلْقَمُ الحَجَرَ، فَإِنَّهُ آكِلُ الرِّبَا، وَأَمَّا الرَّجُلُ الكَرِيهُ المَرْآةِ، الَّذِي عِنْدَ النَّارِ يَحُشُّهَا وَيَسْعَى حَوْلَهَا، فَإِنَّهُ مَالِكٌ خَازِنُ جَهَنَّمَ،...» الحديث [أخرجه البخاري (٧٠٤٧)].

«**أَمَّا الرَّجُلُ الأَوَّلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُثْلَغُ رَأْسُهُ بِالحَجَرِ، فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَأْخُذُ القُرْآنَ فَيَرْفُضُهُ وَيَنَامُ عَنِ الصَّلاَةِ المَكْتُوبَةِ**»؛ فانظروا يا عباد الله ما أشدّ عقوبة من كان هذا حاله؛ من أخذ القرآن ثم أعرض عنه؛ من أخذ القرآن ثم تركه، من تعمد التخلف عن صلاة الجماعة، من نام عن الصلاة ولم يبال، هذه الأصناف.

قال: «**فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَأْخُذُ القُرْآنَ فَيَرْفُضُهُ**»، يبتعد عن التحاكم إليه والعمل به وامتثال أوامره والانزجار بزواجره، ابتعدَ عن الطاعات، لا يبالي ربما يسهر إلى آخر الليل على المعاصي والملاهي، ثم ينام عن صلاة الفجر، فإذا قيل له: لمَ لمْ تصلّ؟ قال: كنت نائما؛ لا يعمل بأي سبب من الأسباب التي توقظه لصلاة الفجر، لكن إذا أراد أن يذهب لشيء من الدنيا والمال لربما فعل ألف سبب حتى لا تفوته الفرصة ولا تذهب عليه الدنيا. هذه عقوبته وهذا حاله: «**رَجُل مُضْطَجِع، وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِصَخْرَةٍ، وَإِذَا هُوَ يَهْوِي بِالصَّخْرَةِ لِرَأْسِهِ فَيَثْلَغُ رَأْسَهُ، فَيَتَدَهْدَهُ الحَجَرُ هَا هُنَا، فَيَتْبَعُ الحَجَرَ فَيَأْخُذُهُ، فَلاَ يَرْجِعُ إِلَيْهِ حَتَّى يَصِحَّ رَأْسُهُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ المَرَّةَ الأُولَى**»؛ هذا في قبره فكيف إذا لقي ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟ ما أشَدَّ هذه العقوبة وما أعظمها لمن قرأ هذه الأدلة وله قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

أما الثاني: قال له: «**وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ، يُشَرْشَرُ شِدْقُهُ إِلَى قَفَاهُ، وَمَنْخِرُهُ إِلَى قَفَاهُ، وَعَيْنُهُ إِلَى قَفَاهُ، فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَغْدُو مِنْ بَيْتِهِ، فَيَكْذِبُ الكَذْبَةَ تَبْلُغُ الآفَاقَ**»، الكذب كبيرة من الكبائر، والله عَزَّوَجَلَّ قد لعن الكاذبين، وعقوباتهم عظيمة في الدنيا والآخرة؛ لكن ما أشَدّ هذه العقوبة لمن يجعل الكذب شعاره، فأول ما يخرج من داره وهو يكذب على نفسه وعلى أهله وعلى أصدقائه وجيرانه، يكذب في عمله يكذب، في عبادته، يكذب في معاملته، وهكذا يكذب الكذبة فتنتشر.

وما أكثر هذا في أيامنا، الذين يكذبون في وسائل التواصل الاجتماعي، ربما كذبة فينشرها في الواتساب أو في غيره من المواقع، فتنتشر هنا وهناك ربما إلى أقصى العالم، هذه عقوبته: «**مُسْتَلْقٍ لِقَفَاهُ، وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِكَلُّوبٍ مِنْ حَدِيدٍ، وَإِذَا هُوَ يَأْتِي أَحَدَ شِقَّيْ**

وَجْهِهِ فَيُشَرْشِرُ شِدْقَهُ إِلَى قَفَاهُ، وَمَنْخِرَهُ إِلَى قَفَاهُ، وَعَيْنَهُ إِلَى قَفَاهُ، - قَالَ: وَرُبَّمَا قَالَ أَبُو رَجَاءٍ: فَيَشُقُّ -» قَالَ: «ثُمَّ يَتَحَوَّلُ إِلَى الجَانِبِ الآخَرِ فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ بِالجَانِبِ الأَوَّلِ، فَمَا يَفْرُغُ مِنْ ذَلِكَ الجَانِبِ حَتَّى يَصِحَّ ذَلِكَ الجَانِبُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلَ المَرَّةَ الأُولَى»؛ وتستمر هذه العقوبة.

فإن كان أهل القبور الذين يعذبون فيها من أهل النار، فإنّ عذابهم دائم ومستمر إلى قيام الساعة، دائم ومستمر، فإنّه جزء من عذاب نار جهنم. وإن كان من أهل المعاصي والسيئات، وهو من أهل التوحيد، فقد ينقطع عنه العذاب كما قال أهل العلم.

ثم قال له جبريل وميكائيل عليهما السلام: «وَأَمَّا الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ العُرَاةُ الَّذِينَ فِي مِثْلِ بِنَاءِ التَّنُّورِ، فَإِنَّهُمُ الزُّنَاةُ وَالزَّوَانِي»، الجزاء من جنس العمل، يوم أن كانوا في الدنيا يتجملون ويتزينون ويتطيبون لأجل الفاحشة؛ عاقبهم الله عَزَّوَجَلَّ في قبورهم، تنتفخ أجسامهم، ويكون اللهب من تحتهم، من حيث وقعوا في معصية الله عَزَّوَجَلَّ بفروجهم.

«فَأَتَيْنَا عَلَى مِثْلِ التَّنُّورِ - قَالَ: فَأَحْسِبُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ - فَإِذَا فِيهِ لَغَطٌ وَأَصْوَاتٌ» قَالَ: «فَاطَّلَعْنَا فِيهِ، فَإِذَا فِيهِ رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ، وَإِذَا هُمْ يَأْتِيهِمْ لَهَبٌ مِنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ، فَإِذَا أَتَاهُمْ ذَلِكَ اللهبُ ضَوْضَوْا»؛ فيصيحون ويتضاغون ويبكون وتستمر هذه العقوبة، تشتد عليهم النيران، فيحاولون الخروج من هذا التنور. فكلما ارتفعت النار ضَوْضَوْا. قال: «فَإِنَّهُمُ الزُّنَاةُ وَالزَّوَانِي»، هذا في قبورهم، فكيف إذا لقوا ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟

◈ الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، حمدًا كثيرًا طيِّبًا مباركًا فيه، كما يُحِبّ ربنا ويرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

أمّا بعد، في هذا الحديث العظيم ذكر ذلك الذي يسبح في نهر أَحْمَرَ مِثْلِ الدَّمِ.

قال أهل العلم: لما كان ذلك المرابي يرابي في الذهب - وربما في الذهب والفضة - والذهب أحمر، فإنّه يعاقب بمثل هذه العقوبة، يسبح في نهر من دم.

ربما إذا سبح العبد في نهر من ماء لا يستطيع أن يستمر إلّا وقتا يسيرًا وإذا به يكلّ، وإذا به يتعب يحتاج إلى الراحة. فكيف إذا كان يسبح في نهر من دم؟

قال: «**وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يَسْبَحُ فِي النَّهَرِ وَيُلْقَمُ الحَجَرَ، فَإِنَّهُ آكِلُ الرِّبَا**»، وتستمر عقوبته كلما أراد أن يخرج ألقِم حجرا في فمه وعاد.

ومعنى ذلك - كما قال أهل العلم: - أنّ صاحب الربا يظن أنه قد حصل على شيء، ولكن الله يمحق بركته، ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ [البقرة: ٢٧٦] كما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم؛ وهكذا الذي يسبح في هذا النهر كلما ظن أنه نجا يريد أن يخرج من هذا النهر، يُلقَم بهذا الحجر ويعود فيه يسبح ويتعب، وكلما أراد أن يخرج أُلقِم في فمه حجرا.

يا أيها الناس، ما أكثر الذين يتساهلون بالربا في معاملاتهم، المهم أن يحصلوا على المال ولو كان من الربا، يتعاملون مع البنوك الربوية، بل أعظم من هذا، ربما على شكل غير البنوك الربوية والتجار، ربما في معاملاتهم اليسيرة يتعاملون بالربا ولا يبالون، وانتشر هذا في أوساطهم فيأكلون الربا.

والله عَزَّوَجَلَّ يقول في كتابه الكريم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ

﴿أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ [آل عمران].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾ [البقرة].

في هذه الآية والتي قبلها بيان لعقوبة آكل الربا، وسواء أكله أو شرب منه أو لبس منه أو سكن منه أو ركب منه، المهم أن يتعاطى الربا؛ وإنما ذُكِر الأكل لأنه أكثرها أخذا وأكثرها تعاطيا، وإلا فإنّ من أكل الربا أو أكّله غيره أو كان كاتبا عليه أو كان شاهدا عليه فإنّه داخل في هذا الوعيد العظيم.

إذا كان هذا يعذب هذا العذاب في قبره، فكيف إذا لقي الله تبارك وتعالى؟

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾ [البقرة].

الربا أنواع كثيرة وأصناف عديدة، ننبه في هذا المقام على مسألة يتداولها كثير من الناس، ويسألون عنها كثيرا فيذهب بعض من عنده مال بحجة أن يعاون الفقراء والمساكين، لمن أراد أن يبني بيتا أو يشتري سيارة أو آلة أو غير ذلك من الأموال أو من المواد التي يبنى بها أو من المواد الغذائية، فيذهب به إلى التاجر أو المصنع أو المعرض أو مكان الشراء فيختار السلعة التي يريدها ثم يأخذها وينصرف، وذلك الذي يكون وسيطا يدفع المال ثم يقبض من صاحبه زيادة على قيمتها إلى أجل، وهذا من الربا، هذا من الربا الذي حرمه الله تبارك وتعالى لأن هذا الواسطة لم يمتلك تلك السلعة ولم يحزها إلى رحله ولم تقيد باسمه ولم يقبضها؛ وحتى وإن قبضها فإنّما يفعل ذلك حيلة لو لم يُرِدْها

ذلك المشتري ما اشتراها ولا قَبِلها، ولو تراجع المشتري لربما تخاصم معه ورفض أن يأخذها بعد ذلك، فهي حيلة من الحيل كما هي حيل بني إسرائيل كما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ عنهم في كتابه الكريم.

فعلينا عباد الله أن نتقي الله عَزَّوَجَلَّ، وأن نبتعد عن المعاملات المحرمة، سواء كان من الربا أو من غيرها، مع أنّه لو أنّ رجلا اشترى شيئا له وتملكه وصار باسمه وحازه ثم باعه لغيره بالتقسيط إلى أجل معلوم بزيادة معلومة لا يزيد إذا حان الأجل عليها، فقد جَوَّزَ ذلك جماهير أهل العلم، ويسمونه ببيع التقسيط ولكنّ الناس احتالوا كثيرا والتفوا كثيرا على هذا البيع فوقعوا في المحظور، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

هذه جملة ما ذُكِر في حديث سمرة، وقد ذكرها أهل العلم في باب عذاب القبر وفي باب نعيمه.

وقد سمعتم في حديث البراء بن عازب أنّ أهل القبور إن كانوا من أهل الإيمان والصلاة، «**فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ صَدَقَ عَبْدِي أَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا، فَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ**» [أخرجه ابن المبارك في «الزهد والرقائق» (١٢١٩)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٢١٤٠)].

إذا فأهل القبور إمّا أن يُعَذّبوا، وإمّا أن يُنَعَّمُوا، ويجب علينا أن نؤمن بذلك، وإن فتحنا القبور فلم نجد شيئا فإنّ هذا من أمور الغيب التي لا يعلمها إلّا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

نؤمن أنّ الكافر إذا دُفِن مع المؤمن في قبر واحد أنّ هذا يُعذَّب وهذا يُنَعَّم، ولم يخالف في هذا إلّا أهل البدع والأهواء من خوارج ومعتزلة وبعض المرجئة، وعلى ذلك الشيعة والرافضة بكاملهم فإنّهم ينكرون عذاب القبر.

وهذا من الإيمان باليوم الآخر الذي هو من أركان الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ، أن نؤمن بما يحصل في القبور وما بعدها من يوم النشور، وما بعده من المواقف العظيمة إلى الجنة أو إلى النار.

وفَّق الله الجميع لما يحب ويرضى، والحمد لله رب العالمين.

[٦] عذاب القبر ونعيمه (٢)

◈ الخطبة الأولى:

إنّ الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾[آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١ ﴾ [الأحزاب].

أما بعد، فإنّ أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون، كان حديثنا في الجمعة الماضية عن بعض الأدلة من الكتاب والسنة التي تثبت أنّ عذاب القبر ونعيمه حق، وأنّه لمن يكون له أهلا. وذكر في ذلك الموضع بعض الأعمال التي تكون سببا لعذاب القبر.

وها نحن سنذكر في هذا المقام بعض الأعمال السيئة التي تكون سببا لعذاب الله عَزَّوَجَلَّ لعبده في قبره، فمن تلك الأعمال ما روى البخاري ومسلم في «صحيحيهما» من حديث عبدالله بْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: مَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بِحَائِطٍ مِنْ حِيطَانِ الْمَدِينَةِ، أَوْ مَكَّةَ، فَسَمِعَ صَوْتَ إِنْسَانَيْنِ يُعَذَّبَانِ فِي قُبُورِهِمَا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**يُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ**» ثُمَّ قَالَ: «**بَلَى، كَانَ أَحَدُهُمَا لاَ يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ، وَكَانَ الآخَرُ**

يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ». ثُمَّ دَعَا بِجَرِيدَةٍ، فَكَسَرَهَا كِسْرَتَيْنِ، فَوَضَعَ عَلَى كُلِّ قَبْرٍ مِنْهُمَا كِسْرَةً، فَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ الله، لِمَ فَعَلْتَ هَذَا؟ قَالَ: «**لَعَلَّهُ أَنْ يُخَفَّفَ عَنْهُمَا مَا لَمْ تَيْبَسَا**» أَوْ: «**إِلَى أَنْ يَيْبَسَا**» [أخرجه البخاري (٢١٦)، ومسلم (٢٩٢)].

وفي «صحيح مسلم» من حديث جابر بن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِنِّي مَرَرْتُ بِقَبْرَيْنِ يُعَذَّبَانِ، فأَحْبَبْتُ، بِشَفَاعَتِي، أَنْ يُرَفَّهَ عنْهمَا، ما دَامَ الغُصْنَانِ رَطْبَيْنِ**» [أخرجه مسلم (٣٠١٢)].

فهذا الحديث العظيم فيه بيان لهذين الذنبين العظيمين الذين يتساهل فيهما كثير من الناس، وهما من أسباب عذاب القبر.

أما الأمر الأول فهي النميمة: نقل الكلام من بعض الناس إلى آخرين على جهة الإفساد لإشعال الفتن وإيغار الصدور وزيادة الفرقة. النميمة التي لا يبالي بها كثير من الناس، يُعَذّب أصحابها في قبورهم.

قال: «**وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ**»، أي أنّ ترك هذا الذنب ليس بكثير ولا عسير.

ثم قال: «**بَلَى**» أي إنّه كبير إي إثمه وجرمه عظيم لمن وقع فيه.

قال: «**كَانَ أَحَدُهُمَا لاَ يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ، وَكَانَ الآخَرُ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ**»، وفي رواية مسلم: «**أَمَّا أَحَدُهُما فَكانَ يَمْشِي بالنَّمِيمَةِ، وأَمَّا الآخَرُ فَكانَ لا يَسْتَتِرُ مِن بَوْلِهِ،...**»، وفي رواية لمسلم أيضا: «**وكانَ الآخَرُ لا يَسْتَنْزِهُ عَنِ البَوْلِ، أَوْ مِنَ البَوْلِ**» [أخرجهما مسلم (٢٩٢) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا].

«**لا يَسْتَنْزِهُ عَنِ البَوْلِ**» لا يهتم بالطهارة، لا يهتم بالنظافة.

وقد جاء من حديث ابن عباس عند البزار، وغيره، قَالَ: قَالَ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**عَامَّةُ عَذَابِ الْقَبْرِ مِنَ الْبَوْلِ، فَاسْتَنْزِهُوا مِنَ الْبَوْلِ**» [أخرجه البزار في «مسنده» (٤٩٠٧)]، وفي رواية أخرى: «**إِنَّ عَامَّةَ عَذَابِ الْقَبْرِ مِنَ الْبَوْلِ**» [أخرجها الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٤٨)، من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

الذي لا يبالي بالابتعاد عن النجاسات، يُخشَى عليه أن يُعَذَّب في قبره.

دين الإسلام دين الزكاء والنقاء والطهارة والنظافة، ولهذا جعل من الفطرة التي فطر الله الناس شرعية الاختتان لإذهاب النجاسات. الكفار لا يختتنون، ولهذا تجدهم يحملون النجاسات ولا يبالون.

أما أهل الإسلام فقد قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ**،...» الحديث [أخرجه مسلم (٢٢٣)، من حديث أبي مالك الأشعري].

في هذا الحديث الذي لا يستبرئ من بوله ولا يستنزه منه يعذب في قبره.

وهكذا معاشر المؤمنين الغِيبَةُ: «**ذِكْرُكَ أخاكَ بما يَكْرَهُ**» [أخرجه مسلم (٢٥٨٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ]. هذا الذنب الذي لا يسلم منه إلا مَن سلَّمه الله تبارك وتعالى، وقَلَّ مَن يسلم منه، مِن أسباب عذاب القبر، روى الإمام أبو داود في من حديث أنس بن مالك، أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «**لَمَّا عُرِجَ بِي مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخْمُشُونَ وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ، قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ، وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ**» [أخرجه أبو داود في «سننه» (٤٨٧٨)، وهو في «الصحيح المسند» لشيخنا العلامة الوادعي، وصححه الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ].

الغِيبَة التي رُبَّما يتلذذ كثير من الناس بها، تصور لهذه العقوبة، يُعَذِّبون أنفسهم بأنفسهم؛ يُجعل لهم مكان أظافرهم أظافر من نحاس ثم يخمشون وجوههم وصدورهم وذلك في قبورهم بسبب هذا الذنب الذي كان من السهل أن يتخلصوا منه ويبتعدوا عنه.

ومن تلك الأسباب أيضًا أنّ المرء يُحِبّ أن يُنَاح عليه، فينوح عليه أهله ويندبونه بعد موته، وهو راض عن هذا المنكر وراغب فيه في حياته، فإنّ هذا من أسباب عذابه في قبره.

روى البخاري ومسلم في «صحيحيهما» عن عمر وعن عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا،

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ الْمَيِّتَ لَيُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عليه**» [أخرجه البخاري (١٢٨٦) من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وأخرجه مسلم (٩٢٧)، من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

وقد جاء عن جماعة من الصحابة، قال أهل العلم: هذا يُحمَل على من كان يرغب في ذلك ولم ينكر ذلك في حياته، وكان يعلم أنّ أهله سيفعلون، فلم ينههم ولم يوصهم ولم يُحَذِّرهم من النياحة المحرمة، فيُعَذَّب في قبره بسبب تلك النياحة. فإن كان لا يرغب في ذلك ويكرهه وينهى عنه، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

ومن تلك الأعمال عباد الله، الأخذ من الغنائم قبل قسمتها، فإنّ هذا من أعظم أسباب عذاب القبر؛ روى البخاري في «صحيحه» من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَال: افْتَتَحْنَا خَيْبَرَ، ولَمْ نَغْنَمْ ذَهَبًا ولَا فِضَّةً، إنَّما غَنِمْنَا البَقَرَ والإبِلَ والمَتَاعَ والحَوَائِطَ، ثُمَّ انْصَرَفْنَا مع رَسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إلى وادِي القُرَى، ومعهُ عَبْدٌ له يُقَالُ له: مِدْعَمٌ، أهْدَاهُ له أحَدُ بَنِي الضِّبَابِ، فَبيْنَما هو يَحُطُّ رَحْلَ رَسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إذْ جَاءَهُ سَهْمٌ عَائِرٌ، حتَّى أصَابَ ذلكَ العَبْدَ، فَقَالَ النَّاسُ: هَنِيئًا له الشَّهَادَةُ، فَقَالَ رَسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: بَلْ، والذي نَفْسِي بيَدِهِ، إنَّ الشَّمْلَةَ الَّتي أصَابَهَا يَومَ خَيْبَرَ مِنَ المَغَانِمِ لَمْ تُصِبْهَا المَقَاسِمُ، لَتَشْتَعِلُ عليه نَارًا. فَجَاءَ رَجُلٌ حِينَ سَمِعَ ذلكَ مِنَ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بشِرَاكٍ -أوْ بشِرَاكَيْنِ- فَقَالَ: هذا شَيءٌ كُنْتُ أصَبْتُهُ، فَقَالَ رَسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: شِرَاكٌ -أوْ شِرَاكَانِ- مِن نَارٍ؛ [أخرجه البخاري (٤٢٣٤)].

الأخذ من المغانم قبل قسمتها؛ ما أكثر الذين يقعون في أيامنا في جهاد الرافضة من المقاتلين والمجاهدين الذين لا يُبَالون بالنهب وأخذ الأموال والغنائم قبل أن تصل إلى موضعها وحكمها الشرعي؛ فانظر إلى هذا الرجل خادم النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ومع ذلك يقول عنه: «**بَلْ، والذي نَفْسِي بيَدِهِ، إنَّ الشَّمْلَةَ الَّتي أصَابَهَا يَومَ خَيْبَرَ مِنَ المَغَانِمِ لَمْ تُصِبْهَا المَقَاسِمُ، لَتَشْتَعِلُ عليه نَارًا**»، وهي شملة، فكيف بمن يأخذ الآلاف والمئات والملايين؟

يا أيها الناس، ومن تلك الأعمال التي يعذب أصحابها في قبورهم بسببها إهمال

الديون، وأخذها من الناس بغير مبالاة، وعدم الاهتمام بقضائها، عدم المبالاة بأموال الآخرين، وإلّا فإنّ الدين مشروع. وقد بيَّن الله وبيَّن رسوله فضل من أنظر معسرا وتعاون مع من لم يستطع شيئا كما في الأحاديث الكثيرة؛ ولكن مَن أخَذ اموال الناس بغير مبالاة أو لغير حاجة ولم يهتم بقضائها.

عَنْ سَعْدِ بْنِ الْأَطْوَلِ، أَنَّ أَخَاهُ مَاتَ وَتَرَكَ ثَلَاثَمِائَةِ دِرْهَمٍ، وَتَرَكَ عِيَالًا، فَأَرَدْتُ أَنْ أُنْفِقَهَا عَلَى عِيَالِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ أَخَاكَ مُحْتَبَسٌ بِدَيْنِهِ، فَاقْضِ عَنْهُ**»، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله قَدْ أَدَّيْتُ عَنْهُ إِلَّا دِينَارَيْنِ، ادَّعَتْهُمَا امْرَأَةٌ وَلَيْسَ لَهَا بَيِّنَةٌ، قَالَ: «**فَأَعْطِهَا فَإِنَّهَا مُحِقَّةٌ**» [أخرجه ابن ماجة (٢٤٣٣)، والطبراني في «الكبير» (٥٤٦٦)، وصحّحه الألباني].

وفي حديث سَمُرةَ قال: خطبنا رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فقال: هاهنا أَحَدٌ، من بني فلانٍ؟ فلم يجبْهُ أحدٌ، ثمَّ قال: هاهنا أحدٌ من بني فلانٍ؟ فلم يجبْهُ أحدٌ، ثمَّ قال: هاهنا أحدٌ من بني فلانٍ؟ فقامَ رجلٌ، فقال: أنا يا رسولَ الله، فقالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: ما منعَكَ أن تُجيبَني في المرَّتينِ الأولَيين؟ إنِّي لم أنوِّه بِكم إلَّا خيرًا، إنَّ صاحبَكُم مأسورٌ بدَينِه، فلقد رأيتُهُ أدَّى عنْهُ حتَّى ما بقيَ أحدٌ يطلبُهُ بشيءٍ؛ [أخرجه أبو داود (٣٣٤١)، بسند حسَّنه الألباني]. وفي رواية: «**إِنَّ فُلَانًا الَّذِي تُوُفِّيَ مِنْكُمْ قَدِ احْتَبَسَ عَنِ الْجَنَّةِ، مِنْ أَجْلِ الدَّيْنِ الَّذِي عَلَيْهِ، فَإِنْ شِئْتُمْ فَافْدُوهُ، وَإِنْ شِئْتُمْ فَأَسْلِمُوهُ إِلَى عَذَابِ الله**» [أخرجها الطبراني في «الكبير» (٦٧٥٢)، من حديث سُمَرة أيضًا].

وفي «الصحيح» من حديث سلمة بن الأكوع قال: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، إِذْ أُتِيَ بِجَنَازَةٍ، فَقالوا: صَلِّ عَلَيْهَا، فَقالَ: هلْ عليه دَيْنٌ؟ قالوا: لَا، قالَ: فَهلْ تَرَكَ شيئًا؟ قالوا: لَا، فَصَلَّى عليه، ثُمَّ أُتِيَ بِجَنَازَةٍ أُخْرَى، فَقالوا: يا رَسولَ الله، صَلِّ عَلَيْهَا، قالَ: هلْ عليه دَيْنٌ؟ قيلَ: نَعَمْ، قالَ: فَهلْ تَرَكَ شيئًا؟ قالوا: ثَلَاثَةَ دَنَانِيرَ، فَصَلَّى عَلَيْهَا، ثُمَّ أُتِيَ بالثَّالِثَةِ، فَقالوا: صَلِّ عَلَيْهَا، قالَ: هلْ تَرَكَ شيئًا؟ قالوا: لَا، قالَ: فَهلْ عليه دَيْنٌ؟ قالوا: ثَلَاثَةُ دَنَانِيرَ، قالَ: صَلُّوا علَى صَاحِبِكُمْ، قالَ أَبُو قَتَادَةَ صَلِّ عليه يا رَسولَ الله وَعَلَيَّ دَيْنُهُ، فَصَلَّى عليه؛ [أخرجه البخاري (٢٢٨٩)].

وقد قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**مَن أَخَذَ أَمْوالَ النَّاسِ يُرِيدُ أداءَها أَدَّى الله عنْه، ومَن أَخَذَ يُرِيدُ إِتْلافَها أَتْلَفَهُ الله**» [أخرجه البخاري (٢٣٨٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ].

◈ الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، حمدًا كثيرًا طيِّبًا مباركًا فيه، كما يُحِبّ ربنا ويرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

أمّا بعد، روى الإمام الحاكم من حديث أبي أمامة، وهو في «صحيح الترغيب والترهيب»، أن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: «**بَينا أنا نائمٌ أتاني رجلانِ، فأخذا بِضَبْعَيَّ فأتَيا بي جبلًا وعْرًا، فقالا: اصعدْ. فقلتُ: إنِّي لا أُطيقُهُ. فقال: إنَّا سَنُسَهِّلُهُ لكَ. فصعدتُ، حتَّى إذا كنتُ في سَواءِ الجبلِ إذا بأصواتٍ شديدةٍ. قلتُ: ما هذهِ الأصواتُ؟ قالوا: هذا عُوَاءُ أهلِ النَّارِ ثمَّ انْطُلِقَ بي فإذا أنا بقَومٍ مُعلَقِينَ بعراقيبِهِم، مُشَقَّقَةٌ أشداقُهُم، تسيلُ أشداقُهُم دمًا. قال: قلتُ: مَن هؤلاءِ؟ قالَ: الَّذينَ يُفطِرونَ قبلَ تَحلَّةِ صَومِهِم. فقال: خابتِ اليهودُ والنَّصارَى فقال سُلَيمُ: ما أدري أسمِعَهُ أبو أُمامَةَ مِن رسولِ الله أم شيءٌ مِن رأْيِهِ ثمَّ انطلقَ بي، فإذا أنا بقَومٍ أشدَّ شيءٍ انتفاخًا، وأنتَنَهُ ريحًا، وأسوأهُ مَنظرًا. فقلتُ: مَن هؤلاءِ؟ فقال: هؤلاءِ قتلَى الكفَّارِ. ثمَّ انطلقَ بي فإذا أنا بقَومٍ أشدَّ شيءٍ انتفاخًا، وأنتَنَهُ ريحًا، كأنَّ ريحَهُم المَراحيضُ. قلتُ: مَن هؤلاءِ؟ قال: هؤلاءِ الزَّانونَ والزَّواني. ثمَّ انطلقَ بي فإذا أنا بنساءٍ تنهشُ ثديَهُنَّ الحيَّاتُ. قلتُ: ما بالُ هؤلاءِ؟ قيلَ: هؤلاءِ يمنعَنَ أولادَهنَّ ألبانَهنَّ...**» الحديث [ذكَرَه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٣٩٣)، وصحّحه].

انظر إلى هذه العقوبة، ورؤيا الأنبياء وحي؛ وهذا في قبورهم، يتقدم قبل أن تغرب الشمس ربما بدقيقة أو دقيقتين أو ثلاث أو أقلّ أو أكثر، يفطر قبل غروب الشمس، فيُعَاقب بهذه العقوبة، لما كان يدخل الطعام في فمه ويخالف أمر الله عَزَّوَجَلَّ وهو قوله: ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، عوقب في ذلك الموضع، «**تسيلُ أشداقُهُم دمًا. قال: قلتُ: مَن هؤلاءِ؟ قال: الَّذينَ يُفطِرونَ قبلَ تَحلَّةِ صَومِهِم**».

قال: «**ثمَّ انطلقَ بي فإذا أنا بنساءٍ تنهشُ ثديَهُنَّ الحيَّاتُ. قلتُ: ما بالُ هؤلاءِ؟ قيلَ: هؤلاءِ يمنعَنَ أولادَهنَّ ألبانَهنَّ**»، يكون عندها طفل، وهو يحتاج إلى اللبن، فتمنعه من اللبن، هذا يحصل في أيامنا، تصنع هذا بعض النساء لماذا؟ قالوا: حتى يبقى ثديها صغيرا وجميلا، تمنع طفلها وربما تعرضه للأمراض والأسقام، تنهش ثديهن الحيات في قبورهن! الجزاء من جنس العمل، هذا الثدي الذي جعل الله فيه الرزق لهذا الطفل الصغير ثم يمنع منه، تنهشه الحيات في القبور، والجزاء من جنس العمل.

وروى الإمام الطحاوي من حديث ابْنِ مَسْعُودٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**أُمِرَ بِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ أَنْ يُضْرَبَ فِي قَبْرِهِ مِائَةَ جَلْدَةٍ، فَلَمْ يَزَلْ يَسْأَلُ وَيَدْعُو حَتَّى صَارَتْ جَلْدَةً وَاحِدَةً، فَجُلِدَ جَلْدَةً وَاحِدَةً، فَامْتَلَأَ قَبْرُهُ عَلَيْهِ نَارًا، فَلَمَّا ارْتَفَعَ عَنْهُ قَالَ: عَلَامَ جَلَدْتُمُونِي؟، قَالُوا: إِنَّكَ صَلَّيْتَ صَلَاةً بِغَيْرِ طُهُورٍ ، وَمَرَرْتَ عَلَى مَظْلُومٍ فَلَمْ تَنْصُرْهُ**» [أخرجه الطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٣١٨٥)].

«**إِنَّكَ صَلَّيْتَ صَلَاةً بِغَيْرِ طُهُورٍ**»، فكيف بمن يترك الصلاة؟ إذا كان هذا ترك الطهور، وربما لم يحسن الطهور يُعَذَّب في قبره، ويشتعل وعليه نارا، فكيف بمن ترك الصلوات وأعرض عنها، ولم يبالِ بأركانها وواجباتها، ولا بشروطها، ولا بطهارتها؟

«**قَالُوا: إِنَّكَ صَلَّيْتَ صَلَاةً بِغَيْرِ طُهُورٍ ، وَمَرَرْتَ عَلَى مَظْلُومٍ فَلَمْ تَنْصُرْهُ**»، نُصْرَة المظلوم واجب من الواجبات، كما جاء في الحديث عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا**» [أخرجه البخاري (٢٤٤٣)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

هذا الرجل مرّ على المظلوم ولم يبالِ. لم يبالِ لأنه لا يبالي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا بالتعاون على الخير، وإنما نفسي نفسي! مرَّ على مظلوم فلم ينصره، فكان عقوبته أن يجلد في قبره جلدة واحدة حتى اشتعل عليه قبره نارا.

إذًا هذه جملة من الأعمال السيئة التي مَن وقع فيها يُعَذَّب في قبره، فالحذر الحذر عباد الله من هذه الأعمال وغيرها من الأعمال، نجّانا الله وإيّاكم من عذاب القبر، ومن عذاب النار.

وبارك الله فيكم، والحمد لله رب العالمين.

[٧] بعض الأحكام والفوائد التي تتعلق بالقبور

◈ الخطبة الأولى:

إنّ الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾[آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١ ﴾ [الأحزاب].

أما بعد، فإنّ أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون عباد الله، كان حديثنا معكم في جمع ماضية عن القبر وعذابه ونعيمه، وعن فتنته وضغطته، وعن أسباب عذاب القبر.

وها نحن اليوم نذكر مكملا لما مضى في بعض الأحكام والفوائد التي تتعلق بالقبور.

أيها الناس عباد الله، كان مما مضى وذُكِر في جمع ماضية: أنّ أهل القبور فيها إما أنهم يُنَعّمون، وإمّا أنّهم يُعَذّبون، وهذا العذاب تسمعه البهائم والحيوانات، كما ثبت ذلك عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ، جاء في «صحيح الإمام مسلم» من حديث زيد بن ثابت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ، قَالَ: بَيْنَمَا النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ فِي حَائِطٍ لِبَنِي النَّجَّارِ، عَلَى بَغْلَةٍ لَهُ وَنَحْنُ مَعَهُ، إِذْ حَادَتْ بِهِ فَكَادَتْ تُلْقِيهِ، وَإِذَا أَقْبُرٌ سِتَّةٌ أَوْ خَمْسَةٌ أَوْ أَرْبَعَةٌ - قَالَ: كَذَا كَانَ يَقُولُ

الْجُرَيْرِيِّ - فَقَالَ: «**مَنْ يَعْرِفُ أَصْحَابَ هَذِهِ الْأَقْبُرِ؟**» فَقَالَ رَجُلٌ: أَنَا، قَالَ: «**فَمَتَى مَاتَ هَؤُلَاءِ؟**» قَالَ: مَاتُوا فِي الْإِشْرَاكِ، فَقَالَ: «**إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا، فَلَوْلَا أَنْ لَا تَدَافَنُوا، لَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ مِنْهُ**» ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ، فَقَالَ: «**تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ**» قَالُوا: نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ، فَقَالَ: «**تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ**» قَالُوا: نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ،... الحديث [أخرجه مسلم (٢٨٦٧)]. والشاهد من الحديث أنّ هؤلاء المشركين يعذبون في قبورهم، ولمّا سمعت هذه البغلة العذاب فزِعَت وكادت أن تُسقِط النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ من على ظهرها.

وفي «الصحيحين» عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: دَخَلَتْ عَلَيَّ عَجُوزَانِ مِنْ عُجُزِ يَهُودِ الْمَدِينَةِ، فَقَالَتَا لِي: إِنَّ أَهْلَ الْقُبُورِ يُعَذَّبُونَ فِي قُبُورِهِمْ، فَكَذَّبْتُهُمَا، وَلَمْ أُنْعِمْ أَنْ أُصَدِّقَهُمَا، فَخَرَجَتَا، وَدَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ عَجُوزَيْنِ، وَذَكَرْتُ لَهُ، فَقَالَ: «**صَدَقَتَا، إِنَّهُمْ يُعَذَّبُونَ عَذَابًا تَسْمَعُهُ الْبَهَائِمُ كُلُّهَا**» فَمَا رَأَيْتُهُ بَعْدُ فِي صَلَاةٍ إِلَّا تَعَوَّذَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ؛ [أخرجه البخاري (٦٣٦٦)، ومسلم (٥٨٦)].

وإذا عذب العبد في قبره فإنّه: «**فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ**» [أخرجه البخاري (١٣٣٨)]، «**الثَّقَلَيْنِ**» أي الجن والإنس.

ومن ذلك عباد الله أنّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أخبر أنّ الشهداء في قبورهم أرواحهم في جنات النعيم، كما جاء «في صحيح مسلم» عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: سَأَلْنَا عَبْدَ اللهِ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران]، قَالَ: أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: «**أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ...**» الحديث [أخرجه مسلم (١٨٨٧)].

وجاء من حديث كعب بن مالك أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «**إِنَّمَا نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ يَعْلُقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يُبْعَثُ**» [أخرجه ابن ماجة

(٤٢٧١)، وصحّحه العلامة الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ].

ومن ذلك أيضا مما يتعلق بالقبور وأحكامِها أن الأنبياء لا تأكل الأرض أجسادهم؛ قال الإمام القرطبي في «التذكرة»: وكذلك الشهداء، للآية المتقدمة ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران]؛ وجاء من حديث أَوْسِ بْنِ أَوْسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ**» [أخرجه ابن ماجة (١٠٨٥)، بسند صحيح].

وكما تقدم في الآية، قال بعض أهل العلم: يشمل الشهداء أيضًا.

أيها المسلمون عباد الله، ومن ذلك ما جاء في «الصحيح» عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ، فَإِنَّهُ يُعْرَضُ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالعَشِيِّ، فَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، فَمِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ**» [أخرجه البخاري (٣٢٤٠)].

ومن ذلك عباد الله، ما جاء في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي تعالى عنه أنَّ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «**لَيْسَ مِنَ الإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى، إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الخَلْقُ يَوْمَ القِيَامَةِ**» [أخرجه البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥)].

هذه من الأحكام التي تتعلق بالقبور وأصحابها؛ ومن ذلك عباد الله، أنّ الله عَزَّوَجَلَّ جعل لهذه القبور أحكاما في الشريعة الإسلامية، جعل تلك القبور والأجداث بيوتا ومنازل لأصحابها، لا يجوز الاعتداء عليها بأي حال من الأحوال؛ قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وهُوَ يُعَلِّمُ عائشة ويُعَلِّم سائر المؤمنين إذا زاروا القبور: «**قُولِي: السَّلَامُ عَلَى أَهْلِ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَيَرْحَمُ اللهُ الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنَّا وَالْمُسْتَأْخِرِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَلَاحِقُونَ**» [أخرجه مسلم (٩٧٤)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا]، وفي رواية: «**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّا، إِنْ شَاءَ اللهُ لَلَاحِقُونَ،**

أَسْأَلُ اللهَ لَنَا وَلَكُمُ الْعَافِيَةَ» [أخرجها مسلم (٩٧٥)، من حديث بُرَيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]؛ «أَهْلَ الدِّيَارِ» فسماها ديارهم، فهي ديارهم ومنازلهم.

ولهذا جاءت الأدلة الكثيرة في سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في حرمة التعدي على بيوت المسلمين وقبورهم، كما جاء ذلك في أحاديث كثيرة.

ومن ذلك أيضا عباد الله أنّه لا يجوز تشييدها ولا بناؤها ولا تعظيمها بغير ما جاء في كتاب الله وسنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ؛ جاء في «صحيح الامام مسلم» من حديث أَبِي الْهَيَّاجِ الْأَسَدِيِّ، قَالَ: قَالَ لِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ؟ «**أَنْ لَا تَدَعَ تِمْثَالًا إِلَّا طَمَسْتَهُ وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ**»، وفي لفظ: «**وَلَا صُورَةً إِلَّا طَمَسْتَهَا**» [أخرجه مسلم (٩٦٩)].

◈ الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، حمدًا كثيرًا طيِّبًا مباركًا فيه، كما يُحِبّ ربنا ويرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

أمّا بعد، فيا أيها الناس، روى الإمام مسلم في «صحيحه» والترمذي من حديث جَابِرٍ قَالَ: «**نَهَى النَّبِيُّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ **أَنْ تُجَصَّصَ الْقُبُورُ، وَأَنْ يُكْتَبَ عَلَيْهَا، وَأَنْ يُبْنَى عَلَيْهَا، وَأَنْ تُوطَأَ**» [أخرجه الترمذي (١٠٥٢)، بسند صحيح]، كل هذا احتراما لهذه البيوت التي هي بيوت المؤمنين بعد موتهم، فلا يجوز البناء عليها ولا رفعها ولا المرور عليها ولا السكنى ولا الجلوس عليها، بل ثبت من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**لَأَنْ يَجْلِسَ أَحَدُكُمْ عَلَى جَمْرَةٍ فَتُحْرِقَ ثِيَابَهُ، فَتَخْلُصَ إِلَى جِلْدِهِ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَجْلِسَ عَلَى قَبْرٍ**» [أخرجه مسلم (٩٧١)]، وفي حديث آخر عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «**لَأَنْ يَجْلِسَ أَحَدُكُمْ عَلَى جَمْرَةٍ، فَتُحْرِقَ ثِيَابَهُ حَتَّى تَخْلُصَ إِلَيْهِ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَطَأَ عَلَى قَبْرِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ**» [أخرجه أحمد (٩٠٤٨)].

ويا لله للعجب! كيف امتهن المسلمون هذه القبور؟ وخصوصًا في بلادنا اليمنية، فترى الشيعة والصوفية عظموها وبنوا عليها القباب، وجعلوا يعبدونها من دون الله عَزَّوَجَلَّ، ويطوفون حولها ويتمسحون بأتربتها؛ وبالمقابل أهل الفجور والخنا الذين تعدوا على مقابر المسلمين فجعلوها محلا للطرقات، وأماكن للمستشفيات، وبيوتا يسكنون عليها، وجعلوا ذلك المنكر كأنه لا شيء، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

ولازال المسلمون يعانون إلى يومنا هذا من ذلك الامتهان العظيم الذي حصل من الاشتراكية الحمراء التي عبثت بمقابر المسلمين في البلاد اليمنية، فما مِن مدينة ولا بلدة ولا قرية إلا ورأيت القبور قد أهينت فيها، فصارت ملاعب وصارت طرقات وبُنِيَ عليها، بل تعدّى الأمر إلى نبشها وأذيتها. وقد قال نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كما في حديث عائشة: «**كَسْرُ عَظْمِ الْمَيِّتِ كَكَسْرِهِ حَيًّا**» [أخرجه أبو داود (٣٢٠٧)، بسند صحيح]؛ تُنبش

القبور وتُهان وتداس بالأقدام ولا حول ولا قوة إلا بالله.

يا أيها الناس، مما يتعلق بذلك أنه لا يجوز أن يُصَلّى إلى القبور ولا عليها، ولا يجوز أن تبنى المساجد على القبور، ولا يجوز أن يُدفَن الأموات في المساجد، فإنّه كما يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا يجتمع في دين الإسلام مسجد وقبر. فَمَن كان الأول فالأحَقِّيَّة له، فإن كان القبر أوّلا يجب هدم المسجد، وإن كان المسجد أوّلا يجب نقل القبر إلى مقابر المسلمين.

قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**لَعْنَةُ الله عَلَى اليَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**» [أخرجه البخاري (٤٣٥)، ومسلم (٥٢٩)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا]؛ وجاء عن أبي هريرة أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**قَاتَلَ الله اليَهُودَ، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**» [أخرجه البخاري (٤٣٧)، ومسلم (٥٣٠)].

وفي حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: لَمَّا اشْتَكَى النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ ذَكَرَتْ بَعْضُ نِسَائِهِ كَنِيسَةً رَأَيْنَهَا بِأَرْضِ الحَبَشَةِ يُقَالُ لَهَا: مَارِيَةُ، وَكَانَتْ أُمُّ سَلَمَةَ، وَأُمّ حَبِيبَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أَتَتَا أَرْضَ الحَبَشَةِ، فَذَكَرَتَا مِنْ حُسْنِهَا وَتَصَاوِيرَ فِيهَا، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: «**أُولَئِكِ إِذَا مَاتَ مِنْهُمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، ثُمَّ صَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّورَةَ أُولَئِكِ شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ الله**» [أخرجه البخاري (١٣٤١)، ومسلم (٥٢٨)].

وفي «صحيح مسلم» من حديث جُنْدَب، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ، وَهُوَ يَقُولُ: «**إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى الله أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ، فَإِنَّ الله تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ**» [أخرجه مسلم (٥٣٢)].

وفي حديث أَبِي مَرْثَدٍ الْغَنَوِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**لَا تُصَلُّوا إِلَى الْقُبُورِ، وَلَا تَجْلِسُوا عَلَيْهَا**» [أخرجه مسلم (٩٧٢)]، ولهذا قال أهل العلم: الصلاة للقبور أو عليها باطلة، والصلاة في مسجد فيه قبر محرّمة.

ولهذا ترى العجب العجاب مما انتشر في البلاد اليمنية لقلة العلم وكثرة الجهل وانتشار بدع الصوفية والشيعة، فأدخلت القبور في المساجد، بل جُعِلت في بعضها في مقدّمتها، فيصلي الناس جيلا بعد جيل وصلاتهم باطلة، والإثم والجرم على من فعل ذلك، ومن ابتدع هذه البدع العظيمة.

لا يجوز الصلاة إلى القبور ولا عليها ولا يجوز وطؤها ولا البناء عليها ولا نبشها، وإنّك لتعجب أنّ كثيرا من الناس يتركون الأراضي والمساحات فيتعدون على المقابر، ثم يذهبون يسألون أهل العلم هل يجوز أن ننبش هذه القبور لأنها في طريقنا إلى مدينتنا أو في طريقنا إلى قريتنا؟ وبإمكانهم أن يبحثوا عن طريق أخرى، ولا يتعدوا على هذه المقابر؛ ولكن هذا لقلة الدين وضعف الإيمان، ولما جرى ومضى قبل ذلك.

فاتقوا الله عباد الله، واعلموا أن هذا من التعدّي على الحقوق، كما أنه لا يرضى المسلم أن يتعدى على داره ولا على ماله ولا على أرضه وهو حي، سيدافع ويقاتل؛ فكيف يُتَعدى على قبور المسلمين؟ انظروا إلى قبور النصارى وهي في بلادنا، في بلاد الإيمان والحكمة، لا يستطيع أحد أن يتعدى عليها مع أنّ قبور المشركين لا حرمة لها، فكيف بأهل الإيمان؟ فكيف بمن يقول: «لا إله إلا الله»؟ فكيف بالموحدين؟ تُبَعْثَر قبورهم وتهان وتداس، وتُجعَل عليها الطرقات؛ وهكذا بالمقابل هناك مَن يُعظمها ويعبدها من دون الله تبارك وتعالى.

ومن ذلك أيضا عباد الله، أنه لا يجوز شدّ الرحال إلى القبور، لقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كما في الصحيحين عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**لاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلاَثَةِ مَسَاجِدَ: الْمَسْجِدِ الحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، **وَمَسْجِدِ الأَقْصَى**» [أخرجه البخاري (١١٨٩)، ومسلم (١٣٩٧)]؛ هذه التي تشد الرحال إليها عبادة، وما عداها حتى من المساجد، لا يجوز شد الرحال إليها. فكيف إلى القبور؟ تشد الرحال إليها وتبذل الأموال وتنفق الأموال الطائلة في شد الرحال إلى بعض القبور التي تُعبد من دون الله تبارك وتعالى.

هذا الذي خافه نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وهذا الذي نهى عنه، وهذا الذي حذَّر منه، ولهذا تقول عائشة: «لَوْلاَ ذَلِكَ لَأُبْرِزَ قَبْرُهُ، خَشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا» [أخرجه البخاري (٤٤٤١)، من قولِ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا]، فإنّه دفن في حجرته التي مات فيها، لو أبرز قبره لربما مع الأيام يُعبَد من دون الله جَلَّ وَعَلَا، ولكن هذا شيء اختاره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والأنبياء تُدْفَن حيث تموت.

وبَقِيَت أحكام أخرى.

نسأل الله عَزَّ وَجَلَّ بِمَنِّه وكرمه وجوده وإِحسانه أن يُوفِّقنا وإيّاكم لما يحب ويرضى.

والحمد لله رب العالمين.

[٨] النفخ في الصور والبعث والنشور

◈ الخطبة الأولى:

إنّ الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾[آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١ ﴾ [الأحزاب].

أما بعد، فإنّ أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون عباد الله، كُنَّا قد تحدثنا في جُمَعٍ ماضية عن بعض المراحل التي يمر بها ابن آدم في رحيله من هذه الدنيا إلى الآخرة، وكان الحديث فيما مضى عن الموت ثم القبر وما يتبع ذلك.

وحديثنا معكم في هذا يوم إن شاء الله تعالى عن أمر يحدث للبشر ولبني آدم، بل ولكلّ من كلّفه الله عَزَّوَجَلَّ من الإنس والجن بعد مكوثهم في الأجداث، ألَا وهو النفخ في الصور والبعث بين يدي الله تبارك وتعالى.

فهذا أمر يحصل بعد القبور، وما فيها من الأهوال العظيمة.

والصور، كما يقول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، كما عند أبي داود والترمذي من حديث

عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ، قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: مَا الصُّورُ؟ قَالَ: «**قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ**» [أخرجه الترمذي (٢٤٣٠)، وأبو داود (٤٧٤٢)، وصحَّحه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح الترغيب والترهيب»].

الذي ينفخ في الصور، إسرافيل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فقد ثبت عند الإمام الترمذي من حديث أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ القَرْنِ قَدِ التَقَمَ القَرْنَ وَاسْتَمَعَ الإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ**» فَكَأَنَّ ذَلِكَ ثَقُلَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لَهُمْ: «**قُولُوا: حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الوَكِيلُ عَلَى الله تَوَكَّلْنَا**» [أخرجه الترمذي (٢٤٣١)]

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في ذلك الزمن، وهو يقول: «**كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ القَرْنِ قَدِ التَقَمَ القَرْنَ وَاسْتَمَعَ الإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ**»!.

النفخ في الصور، يقول الله عَزَّوَجَلَّ عنه في كتابه الكريم: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [يس].

ويقول الله عَزَّوَجَلَّ في الصور: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر].

ويقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [النمل].

ويقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم كما في «صحيح الإمام مسلم» من حديث عَبْدَ اللهِ بْنِ عَمْرٍو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْغَى لِيتًا وَرَفَعَ لِيتًا، قَالَ: وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ، قَالَ: فَيَصْعَقُ، وَيَصْعَقُ النَّاسُ، ثُمَّ يُرْسِلُ الله - أَوْ قَالَ يُنْزِلُ الله - مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ أَوِ الظِّلُّ - نُعْمَانُ الشَّاكُّ - فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى، فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ،...**» [أخرجه مسلم (٢٩٤٠)]، وفي رواية: «**ثُمَّ لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا صَعِقَ**» [أخرجها أحمد (٦٥٥٥)، من حديث عبد

الله بن عمرو].

وفي الآية المتقدمة: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨]، وهذا الاستثناء، قال بعض أهل العلم: هم الأنبياء؛ وقال آخرون: بل الملائكة؛ وقال آخرون: بل الشهداء، لأن الله يقول: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران].

ولم يأتِ دليل صريح في بيان من يُستَثْنى من هذا الصعق.

وقد ذكر أهل العلم أن النفخ في الصور كما في هذه الآية نفختان، وهو الذي عليه جماهير أهل العلم. وقال آخرون: بل ثلاث.

روى الإمامان البخاري ومسلم في «صحيحيهما» من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ**» قَالَ: أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالَ: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالَ: «**ثُمَّ يُنْزِلُ الله مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ البَقْلُ، لَيْسَ مِنَ الإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى، إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الخَلْقُ يَوْمَ القِيَامَةِ**» [أخرجه البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥)].

قال جمهور أهل العلم: فهما نفختان: الأولى للفزع والصعق، والثانية للبعث.

والأولى هي التي تسمى بالصيحة، والتي يقال لها: الراجفة. والثانية للبعث، وهي التي يقال لها: الرادفة.

وقال آخرون: بل هي ثلاث: الأولى للفزع، والثانية للصعق، والثالثة للبعث.

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وهو يصف حال الناس عند صعقهم: «**النَّاسُ يَصْعَقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ العَرْشِ، فَلاَ أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي أَمْ جُوزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ**» [أخرجه البخاري (٣٣٩٨)، من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

◈ الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، حمدًا كثيرًا طيِّبًا مباركًا فيه، كما يُحِبّ ربنا ويرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد، فيا أيها الناس، إذا نفخ في الصور، بُعِث العباد من قبورهم إلى ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والبعث أدلته في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وفي سنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كثيرة.

البعث: هو إحياء الناس من قبورهم يوم قيامة لحسابهم وفصل القضاء بينهم.

البعث يدخل في ركن من أركان الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ، وهو الإيمان باليوم الآخر، فهو منه. ولهذا فإنّ منزلته عظيمة في باب عقيدة المسلم.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون].

ويقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين].

ويقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ [المؤمنون].

ويقول الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ

لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الحج].

وهكذا يقول الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ [يس].

وذكر الطبري في «تفسيره»، عَنْ قَتَادَةَ، قَوْلُهُ: ﴿ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ ﴾ [يس]، ذَكَرَ لَنَا أَنَّ أُبَيَّ بْنَ خَلَفٍ، أَتَى رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بِعَظْمٍ حَائِلٍ، فَفَتَّهُ، ثُمَّ ذَرَّاهُ فِي الرِّيحِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ مَنْ يُحْيِي هَذَا وَهُوَ رَمِيمٌ؟ قَالَ: «**الله يُحْيِيهِ، ثُمَّ يُمِيتُهُ، ثُمَّ يُدْخِلُكَ النَّارَ**» ؛ قَالَ: فَقَتَلَهُ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ عُنِيَ بِهِ: الْعَاصُ بْنُ وَائِلٍ السَّهْمِيُّ [كما في «جامع البيان» ط. هجر (١٩/ ٤٨٦)].

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ [يس].

ويقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ [القيامة].

ويقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام: ٩٤].

ويقول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥۚ وَعْدًا عَلَيْنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الأنبياء].

ويقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ

مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ ﴾ [الإسراء].

إذًا بعد القبور بعث ونشور إلى الله تبارك وتعالى.

وأدلة البعث كثيرة في الكتاب والسنة، ولهذا فإن الله عَزَّوَجَلَّ جعل إنكار هذا الأمر من علامات الكفر والزندقة، فقد جاء في الحديث القدسي في الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**قَالَ اللهُ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي، كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ...**» الحديث [أخرجه البخاري (٤٩٧٤)].

والله عَزَّوَجَلَّ يقول في كتابه الكريم: ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾ [التغابن].

فبيَّن أنّ هذا من عقيدة الكافرين الذين ينكرون البعث والنشور إلى الله تبارك وتعالى.

يا أيها الناس، تصوروا وتذكروا هذه المواقف العظيمة، ينفخ في الصور فيصعق من في السماوات ومن في الأرض، ليس محصورا على بني آدم، بل كلّ مَن في السماوات والأرض، ثم يُبعَث العباد إلى ربهم سبحانه تعالى، يخرجون من قبورهم إلى يوم نشورهم، أولهم وآخرهم، إنسهم وجِنّهم، يقومون لرب العالمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

كيف يكون حال المفرطين؟ وكيف يكون حال المعرضين؟ وكيف يكون حال المبتعدين عن طاعة الله عَزَّوَجَلَّ في مثل هذه المواقف العصيبة والمشاهد الرهيبة، التي ذكرها الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم، وبين لنا عظمها وشدتها تحذيرا لنا وتنبيها لنا لِنُعِدّ العُدّة ونستعد لمثل هذه المواقف العظيمة.

وفق الله الجميع لما يحب ويرضى، والحمد لله رب العالمين.

[٩] حشر العباد ليوم المعاد

◈ الخطبة الأولى:

إنّ الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾[آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١ ﴾ [الأحزاب].

أما بعد، فإنّ أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون عباد الله، كان حديثنا في الجمع الماضية عن البعث وما يتعلق بذلك.

وأما حديثنا في هذه الجمعة إن شاء الله تعالى فهو عن الحشر؛ والحشر كما يقول أهل العلم: في اللغة: هو الجمع.

وتعريفه في الشرع: هو جمع الخلائق يوم القيامة للقضاء بينهم، لحسابهم والقضاء بينهم.

وقد ذكر الإمام القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى أنّ الحشر في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وفي سنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ: **على أربعة أقسام**: حشران في الدنيا، وحشران في الآخرة.

فأمّا اللذان في الدنيا: فالحشر الأوّل هو المذكور في سورة الحشر: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ٢﴾ [الحشر]، وهو حشر بني النضير، لما نقضوا العهد وغدروا بأهل الإيمان، فأخرجوا من المدينة النبوية، وحشروا وتفرقوا، وكان منهم من انطلق إلى بلاد الشام التي هي أرض المحشر والمنشر.

وأما النوع الثاني: فإن الله عَزَّوَجَلَّ يجعل قبل قيام الساعة نارا «**تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدَنَ تَسُوقُ النَّاسَ أَوْ تَحْشُرُ النَّاسَ، فَتَبِيتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا، وَتَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا**» [أخرجه الترمذي (٢١٨٣)، من حديث حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ]، وقد جاء أيضا: «**أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فَنَارٌ تَحْشُرُ النَّاسَ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ**» [أخرجه البخاري (٣٣٢٩)، من حديث عَبْد الله بْن سَلاَمٍ]، ولا مانع أن تبدأ من قعر عدن ثم تلتقي بتلك النار، فتحشر الناس إلى أرض المحشر.

وقد جاء في «صحيح مسلم» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، قَالَ: «**يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى ثَلَاثِ طَرَائِقَ، رَاغِبِينَ رَاهِبِينَ، وَاثْنَانِ عَلَى بَعِيرٍ، وَثَلَاثَةٌ عَلَى بَعِيرٍ، وَأَرْبَعَةٌ عَلَى بَعِيرٍ، وَعَشَرَةٌ عَلَى بَعِيرٍ، وَتَحْشُرُ بَقِيَّتَهُمُ النَّارُ تَبِيتُ مَعَهُمْ، حَيْثُ بَاتُوا وَتَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا، وَتُصْبِحُ مَعَهُمْ حَيْثُ أَصْبَحُوا، وَتُمْسِي مَعَهُمْ حَيْثُ أَمْسَوْا**» [أخرجه مسلم (٢٨٦١)].

هذا كله في الدنيا؛ **وأما الحشر في الآخرة فإنه ينقسم أيضًا إلى قسمين: حشر الخلائق إلى أرض المحشر والموقف**، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا ٤٧﴾ [الكهف].

وأما النوع الثاني: فهو الحشر إلى الجنة أو النار، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا ٨٥ وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا ٨٦﴾ [مريم].

ومقصودنا في هذا المقام الحشر في الآخرة، وقد ذكر الله عَزَّوَجَلَّ وصفه ومكانه وحال

أهله.

فأما الكيفية، فإن الله عَزَّوَجَلَّ يقول في كتابه الكريم: ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ [ق]؛

يبعث الناس من قبورهم وتحصل تلك الصيحة، ويستمع الخلائق، ويحشرون إلى ربهم؛ ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ [طه]. يُحشر الخلائق أجمعون، ليس خاصا ببني آدم.

ثم الأرض التي يحشرون عليها ليست هذه الأرض، فإنّها تُغيّر وتُبدّل، كما في «الصحيح» عن سَهْلَ بْنَ سَعْدٍ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ يَقُولُ: «**يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ، كَقُرْصَةِ نَقِيٍّ**» قَالَ سَهْلٌ أَوْ غَيْرُهُ: «**لَيْسَ فِيهَا مَعْلَمٌ لِأَحَدٍ**» [أخرجه البخاري (٦٥٢١)]؛ هكذا يحشر الناس عليها.

وأما حال العباد عند حشرهم، فاسمع إلى ما ذكر النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، فقد روى البخاري ومسلم في «صحيحيهما» من حديث عبدالله بن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: قَامَ فِينَا النبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ يَخْطُبُ، فَقَالَ: إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا: ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] الآيَةَ، وإِنَّ أَوَّلَ الخَلَائِقِ يُكْسَى يَومَ القِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ، وإِنَّه سَيُجَاءُ بِرِجَالٍ مِن أُمَّتِي فيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ، فأَقُولُ: يا رَبِّ أَصْحَابِي، فيَقولُ: إِنَّكَ لا تَدْرِي ما أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، فأَقُولُ كما قالَ العَبْدُ الصَّالِحُ: ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ﴾ - إلى قَوْلِهِ - ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٧- ١١٨] قالَ: فيُقَالُ: إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ علَى أَعْقَابِهِمْ؛ [أخرجه البخاري (٦٥٢٦)، ومسلم (٢٨٦٠)].

انظروا عباد الله كيف يحشر الله عَزَّوَجَلَّ العباد؟ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا في صعيد واحد، أولهم وآخرهم، وليس هذا خاصًّا ببني آدم، بل يحشر الله عَزَّوَجَلَّ الخلائق أجمعين.

تصور هذا المنظر العظيم، المنظر الرهيب، الموقف الشديد، والناس كلهم عراة، حافية أقدامهم، شاخصة أبصارهم، يُساقون إلى الله عَزَّوَجَلَّ لفصل القضاء وحساب العباد، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾ [ق]، تقودهم الملائكة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

أمّا الكافرون والمجرمون، قال الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [الإسراء]، تفكر في معنى هذه الآية. تصور كيف يكون حالهم؟ الناس يسيرون على أقدامهم ويركبون إلى ربهم، والكافرون يُحشَرون على وجوههم!

روى الإمامان البخاري ومسلم في «صحيحيهما» من حديث أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه وأرضاه أنَّ رَجُلًا قالَ: يا نَبِيَّ الله، كيفَ يُحْشَرُ الكَافِرُ علَى وجْهِهِ؟ قالَ: أليسَ الذي أمْشَاهُ علَى الرِّجْلَيْنِ في الدُّنْيَا قَادِرًا علَى أنْ يُمْشِيَهُ علَى وجْهِهِ يومَ القِيَامَةِ. قالَ قَتَادَةُ: بَلَى وعِزَّةِ رَبِّنَا؛ [أخرجه البخاري (٦٥٢٣)، ومسلم (٢٨٠٦)].

وأمّا أهل الإيمان فإنهم يكرمون حتى في مقام الحشر، وفي هذا الموقف الذي هو موقف القلق والحزن والوجل؛ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾ [مريم]. قال بعض أهل التفسير: يحشرون على نجائب الإبل المُحلّاة بالذهب والفضة.

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ [مريم]، انظر إلى الفرق العظيم والبون الشاسع، قوم يكرمون فيحشرون إلى الله عَزَّوَجَلَّ وُفُودًا مكرمين من الله عَزَّوَجَلَّ، وقوم يساقون سَوْقًا ويسحبون سحبا على وجوههم؛ ما أشَدَّ هذا الموقف عباد الله، ولهذا فإنّه ينبغي لنا أن نحذر كل الحذر من أن تمر بنا المواقف ونحن من المفرطين.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾

[يس]، الحشر إلى الله والانتقال إلى الله والوقوف بين يدي الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فاعمل صالِـحًا تكن من المكرمين الوفود، وتكون سالما من الإهانة، ومما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ في هذه الآيات.

◈ الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، حمدًا كثيرًا طيِّبًا مباركًا فيه، كما يُحِبّ ربنا ويرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

أمّا بعد، يا أيها الناس، الحشر ليس خاصا ببني آدم، بل هو عام، حتى البهائم تحشر؛ ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾ [التكوير].

ولهذا فإنّ قول كثير من أهل التفسير والعلم أنّ البهائم تحشر، وهو الذي اختاره القرطبي في «التذكرة»، وشيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في «مجموع الفتاوى»؛ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ۝٣٨﴾ [الأنعام]؛ فكُلّ الدواب تحشر إلى الله، كُلّ الخلائق يحشرون إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ولهذا يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ۝٢٩﴾ [الشورى].

وفي «الصحيحين» قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ، مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ**» [أخرجه مسلم (٢٥٨٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ]؛ يُقْتَصّ للبهائم، تبعث بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ ثم يقتص لبعضها من بعض مما كان بينها من المظالم، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء.

قال أهل التفسير: ثم يقول الله عَزَّوَجَلَّ لها: كوني ترابًا؛ ليست كالإنس والجن الذين بعد نشرهم وبعثهم حساب وصراط وميزان وجنة أو نيران؛ وإنّما تكون ترابا. قال أهل التفسير: ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًۢا ۝٤٠﴾ [النبأ]، أي كهذه البهائم التي يقتص لبعضها من بعض ثم تصير ترابا.

إذًا فيا أيها الناس، علينا أن نُعِدّ العُدَّة للقاء الله تبارك وتعالى، ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ

﴿فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة].

مشاهد يوم القيامة عظيمة، ومنها هذا الذي سمعتم طرفا منه في هذه الأدلة القليلة، في حشر الناس وبعثهم ونشورهم ولقائهم بربهم، ليس لهم مال ينجيهم ولا جاه يدفع عنهم، بل حتى ملابسهم ليست معهم التي كانوا يلبسونها في الحياة الدنيا، يحشرون إلى الله عَزَّوَجَلَّ فقراء أذِلّاء، مَن أكرمه الله عَزَّوَجَلَّ فهو المكرم، ومن عاقبه وأهانه فهو الـمُـهان.

«**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ الله فِي ظِلِّهِ، يَومَ لا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ**» [أخرجه البخاري (٦٦٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]، هؤلاء الصالحون الذين يُكرَمون في أرض المحشر، ذلك الموضع العظيم الذي جعله الله عَزَّوَجَلَّ على الكافرين خمسين ألف سنة، وعلى غيرهم ألف سنة، والشمس قد دنت منهم قدر ميل، وقد غرقوا في عرقهم، فيستثني الله عَزَّوَجَلَّ من عباده أهل الخير والصلاح، فيظلهم في ظل عرشه، والآخرون ينتظرون فصل القضاء، وقد كثرت سيئاتهم وقلَّت حسناتهم.

يا أيها الناس، إنّه يوم عظيم، يقوم فيه العباد من قبورهم إلى ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فينبغي لنا أن نُعِدّ العُدّة، وأن نُقبل على طاعة الله جَلَّ وَعَلَا، وأن نُبَادر إلى مرضاته، ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران].

وفّق الله الجميع لما يحب ويرضى، والحمد لله رب العالمين.

[١٠] قيام الساعة

◈ الخطبة الأولى:

إنّ الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾[آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١ ﴾ [الأحزاب].

أما بعد، فإنّ أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون عباد الله، يقول الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم: ﴿ وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ٣ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦ ﴾ [المطففين].

يُبيِّن الله عَزَّوَجَلَّ في هذه الآية العظيمة أنّ هناك يومًا يقوم فيه العباد بين يديه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ألَا وهو يوم القيامة، فيحاسبهم على القليل والكثير، وعلى النقير والقطمير، وعلى الأقوال والأفعال؛ يقف فيه العباد في يوم شديد الحرارة، الشمس قد دنت منهم قدر ميل، وأجسادهم عارية، وأقدامهم حافية، وهم ينتظرون فصل القضاء.

﴿ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦ ﴾

[المطففين]، إنّه يوم القيامة، الذي وصفه الله عَزَّوَجَلَّ بأوصاف عظيمة، وسمّاه بأسماء عديدة، تنفيرًا للعباد وتحذيرًا لهم وتنبيهًا لهم ليستعدوا لذلك اليوم العظيم.

ولهذا إذا نظرت إلى كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، لوجدت أنّ الله عَزَّوَجَلَّ سمى ذلك اليوم بأسماء كثيرة، وهكذا في سنة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، ولقد أوصل بعض أهل العلم أسماء القيامة أو يوم القيامة إلى نحو مائة اسم.

ونذكر شيئا من أهم تلك الأسماء ومن أعظم تلك الأسماء:

فمِن أسمائها: الساعة: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٞ لِّلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف: ٦١]، ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾ [الحج: ٧]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤].

ومن أسمائها أيضًا: يوم الدين، قال الله في سورة الفاتحة: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة].

ومن أسمائها: الواقعة: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَٰقِعَةُ ۝١﴾ [الواقعة].

ومن أسمائها: الطامة الكبرى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ ۝٣٤﴾ [النازعات].

ومن أسمائها: الصاخة: أي التي تصيخ الأسماع، ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝٣٣﴾ [عبس].

ومن أسمائها: الآزفة: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ﴾ [غافر].

ومن أسمائها: القارعة: ﴿ٱلۡقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٢﴾ [القارعة].

ومن أسمائها: الحاقة: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٢﴾ [الحاقة].

ومن أسمائها: يوم الحساب: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ۝١٦﴾ [ص].

ومن أسمائها: اليوم الموعود: ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ۝٢﴾ [البروج].

ومن أسمائها: يوم التغابن: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن].

وهكذا أسماء عديدة في تسمية يوم القيامة.

لتعلم عبد الله أنه يوم عظيم فوق ما يتصور العباد، ولقد أوكل الله عَزَّوَجَلَّ تحديد ذلك اليوم إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلم يُطلِع على ذلك ملكا مقربا، ولا نبيا مرسلا.

وما جاء في حديث أبي هريرة أنّ الساعة تقوم يوم الجمعة، فلم تُحدّد في شهر معين، ولا في فصل معين، ولا في عام معين، وإنّما في جمعةٍ من الجمع؛ قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ٣٤﴾ [لقمان].

ويقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٧﴾ [الأعراف].

ويقول سبحانه: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ٤٤ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ٤٥ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ٤٦﴾ [النازعات].

ويقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ٦٣﴾ [الأحزاب].

ويقول النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ كما في حديث جبريل المشهور الطويل، حين سأله جبريل عن الساعة: قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ، قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ» [أخرجه مسلم (٨)، من حديث عُمَر بْن الْخَطَّابِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ].

وفي «صحيح مسلم» عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه، يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ، يَقُولُ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِشَهْرٍ: «**تَسْأَلُونِي عَنِ السَّاعَةِ؟، وَإِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ، وَأُقْسِمُ بِاللهِ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ تَأْتِي عَلَيْهَا مِائَةُ سَنَةٍ**» [أخرجه مسلم

(٢٥٣٨)].

والأدلة في هذا كثيرة أنّ علمها عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومع ذلك فإنّ الله عَزَّوَجَلَّ بيَّن لنا أنّ الساعة قريب، وأنّها آتية لا محالة، ولهذا قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣﴾ [الأنبياء].

ويقول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾ [المعارج].

ويقول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾ [القمر].

ويقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم كما في «الصحيحين» من حديث أنس: «**بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ**» قَالَ: وَضَمَّ السَّبَّابَةَ وَالْوُسْطَى؛ [أخرجه البخاري (٦٥٠٤)، ومسلم (٢٩٥١)].

وجاء من حديث أَبِي جَبِيرَةَ بْنِ الضَّحَّاكِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ: «**بُعِثْتُ فِي نَسَمِ السَّاعَةِ**» سَمِعْتُ أَعْرَابِيًّا يَقُولُ: «فِي أَوَّلِ وَقْتِهَا» [أخرجه ابن أبي الدنيا في «الأهوال» (٥)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٦٧٢١)، وصحّحه العلامة الألباني].

«**بُعِثْتُ فِي نَسَمِ السَّاعَةِ**» أي في أوّل قدوم علاماتها ونسيم رياحها.

وهي كما قال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ في الحديث الآخر: «**بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ...**» الحديث [أخرجه أحمد (٥١١٥)، وغيره، من حديث ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا].

فالنبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ يُبيِّن أنّ الساعة زمنها قريب، ولهذا جاء في «صحيح البخاري» أن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ قال: «**إِنَّمَا أَجَلُكُمْ فِي أَجَلِ مَنْ خَلاَ مِنَ الأُمَمِ، مَا بَيْنَ صَلاَةِ العَصْرِ إِلَى مَغْرِبِ الشَّمْسِ...**» الحديث [أخرجه البخاري (٣٤٥٩)، من حديث

ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا]؛ وفي الآية المتقدمة: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الأحزاب].

أيها الناس عباد الله، إنّ قيام الساعة أمر عظيم وأمر شديد، لا تتحمله العقول ولا القلوب؛ إنّ قيام الساعة معناه تغيّر هذا الكون بأسره، وتغيّر نظامه، إنّ معناه أن يُبعَث مَن في القبور منذ أن خلق الله الأرض ومن عليها.

أن تقوم الساعة معناه أن تُبَدَّل الأرض غير الأرض والسماوات، ولهذا يقول الله عَزَّوَجَلَّ وهو يصف لنا هذا المشهد العظيم عند قيام الساعة: ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ ﴾ [التكوير].

الشمس يذهب ضوئها، والكواكب والنجوم تتبعثر، والبحر يُسجّر ويُفَجَّر، والسماء تكشط كما يكشط سقف البيت، والجنة تُزلف، والنار تسعر، والوحوش تحشر، والإبل وغيرها تعطل، هذا كله عند قيام الساعة؛ ولهذا يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ ﴾ أي صارت بحرًا واحدًا؛ ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ ﴾ [الانفطار].

إنّه أمر عظيم وشيء فظيع لا تتحمله العقول، ولهذا قال الله في الآية: ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [المطففين]، يوم يقوم الناس لخالقهم، ويقفون بين يديه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما تقدم على ذلك الحال من جمع الأوّلين والآخرين.

◈ الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، حمدًا كثيرًا طيِّبًا مباركًا فيه، كما يُحِبّ ربنا ويرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

أمّا بعد، فيا أيها المسلمون لو جعلنا نتصفح سور القرآن وصفحاته صفحة صفحة لوجدنا أنّ الله عَزَّوَجَلَّ ذكر يوم القيامة في عشرات بل في مئات المواضع، وهو يصف لنا تلك المشاهد العظيمة والمواقف الرهيبة في قيام الساعة وبعث الخلق وحشرهم ووقوفهم بين يديه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ مما يجعل العبد يُعِدُّ العُدَّة ويستعد للقاء الله عَزَّوَجَلَّ، ولكنا أعرضنا عن القرآن وعن تدبّر القرآن.

ولكن اسمع في هذا المقام إلى موضعين أو ثلاثة، يصف الله عَزَّوَجَلَّ بهما قيام الساعة. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ۝٢ ﴾ [الحج].

الزلزلة ما يحصل من اضطراب الأمر وشِدَّتِه على نفوس الخلق في ذلك اليوم، فتضطرب نفوسهم وقلوبهم، ويصيبهم من الفزع ومن الهلع والخوف والانزعاج والذعر، ﴿ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ ﴾ لشِدَّة الموقف ولعِظَمِ الخطب، فإنّ الأمّة تترك أحبّ الناس إليها وهو الرضيع الذي لا تُفارقه ولا ترضى بمفارقته، وإذا بها تُشغَل عنه وتذهل عنه لشدة هذا الأمر ولهول هذا الموقف، فتذهل عنه وهو في حاجتها، وهو في حاجة إلى إرضاعها.

قال تعالى: ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا ﴾، أي قبل وقت خروجه ووضعه لشدّة ذلك اليوم.

﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ لشِدّة اضطرابهم وانزعاج قلوبهم وذهاب عقولهم، فإنّ من ينظر إليهم يظن أنّهم سكارى؛ ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [الحج].

روى البخاري ومسلم في «صحيحيهما» من حديث أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «**يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ، قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟، قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَعِنْدَهُ يَشِيبُ الصَّغِيرُ، ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾** [الحج]» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَأَيُّنَا ذَلِكَ الوَاحِدُ؟ قَالَ: «**أَبْشِرُوا، فَإِنَّ مِنْكُمْ رَجُلًا وَمِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا. ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الجَنَّةِ**» فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: «**أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ**» فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: «**أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الجَنَّةِ**» فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: «**مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ إِلَّا كَالشَّعَرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَبْيَضَ، أَوْ كَشَعَرَةٍ بَيْضَاءَ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَسْوَدَ**» [أخرجه البخاري (٣٣٤٨)، ومسلم (٢٢٢)].

وجاء في «صحيح مسلم» من حديث عَائِشَةَ، قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «**يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا**» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ النِّسَاءُ وَالرِّجَالُ جَمِيعًا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**يَا عَائِشَةُ الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ**» [أخرجه مسلم (٢٨٥٩)].

وجاء عند الإمام أحمد من حديث عَائِشَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «**يَبْعَثُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا**»، قَالَ: فَقَالَتْ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَكَيْفَ بِالْعَوْرَاتِ؟ قَالَ: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧﴾ [عبس]؛ [أخرجه أحمد (٢٤٥٨٨)].

﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧﴾ [عبس]؛ في ذلك اليوم كلهم ينتظرون

فصل القضاء وما يُقادون إليه وما يصيرون إليه، فلا ينتبهون لما هم عليه من الألوان ومن كشف العورات، ﴿ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ٣٧ ﴾ [عبس]؛ فالعرق قد أغرقهم، منهم من وصل إلى ترقوته، ومنهم من وصل إلى ركبتيه، ومنهم من وصل إلى حلقه، ومنهم من ألجمه العرق إلجاما، فهم في أمر عظيم.

وهكذا موقف آخر، يقول الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم: ﴿ ٱلۡقَارِعَةُ ١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ٣ يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ٤ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ ٥ ﴾ [القارعة]، يصف يوم القيامة فيسميها بالقارعة لأنها تقرع أسماع الناس بما فيها من الشدائد وبما فيها من الأهوال، بل تقرع قلوبهم؛ ثم يكرر ذلك تعظيما لها وتفخيما لشأنها.

﴿ ٱلۡقَارِعَةُ ١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ٣ يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ٤ ﴾ [القارعة]، لا يدرون إلى أين يتجهون؛ يتبعثرون كما تتبعثر الفراش، فهذا سيذهب يمنة وذاك يذهب يسرة، وذاك يتقدم وذاك يتأخر، هل رأيت فراشًا مبثوثًا كيف يكون سيره واضطرابه؟

فالناس يوم القيامة عند بعثهم يكونون على هذا الحال، ﴿ يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ٤ ﴾ [القارعة]، وهذا في أوّل أمرهم، وإلّا فإنّهم بعد أن يروا أنّهم يُقادون إلى الله يصيرون كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ٧ ﴾ [القمر]، أي يمشون باتجاه واحد بعد اضطرابهم وتشتتهم كالجراد المنتشر.

قال: ﴿ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ ٥ ﴾ كالصوف الذي أوشك على التمزق والتفرق، وقد ذكر الله عَزَّوَجَلَّ الجبال مع عظمتها وضخامتها وثباتها أنها تنتهي يوم القيامة، وأنها تُدَكّ وأنها تُسيّر: ﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا ٢٠ ﴾ [النبأ]،

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ [طه]، وفي آية: ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ ﴾ [الواقعة]، فإنها تُسيّر، ثم تُدَكّ، ثم تصير كالرمال، ثم تأخذها الرياح.

كما أخبر الله تبارك وتعالى: ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ ﴾ [القارعة]، بعد شدتها وصلابتها وقوتها.

فأين نحن من الاستعداد لذلك اليوم العظيم؟ ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [المطففين].

ويقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [عبس].

كم نقرأ في مثل هذه الآيات؟ ولكن أين التذكر والاعتبار عباد الله؟ ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾ [البقرة].

وقد سمعت الله عَزَّوَجَلَّ وهو يذكر أحوال قيام الساعة وتغير هذا الكون؟ فقال في الآيات الأول: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ ﴾ [التكوير]، وقال في التي بعدها: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ ﴾ [الانفطار]، فهل أعددنا لتلك المواقف العدّة؟ هل أقبلنا على الله عَزَّوَجَلَّ؟ هل تذكرنا أنّه لابد من يوم يقوم فيه العباد لرب العالمين؟ يوم مشهود؛ يوم يغبن فيه من يغبن، ولهذا سمي يوم التغابن؛ يوم يتحسّر فيه من يتحسّر ولهذا قيل له يوم الحسرة؛ يوم يفصل فيه بين العباد، ولهذا قيل له يوم الفصل؛ يوم يجازى العباد، ولهذا قيل له يوم الجزاء والدين.

فعلينا عباد الله أن نُعِدّ العدة للقاء الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ٥٩﴾ [غافر].

وإذا كان الإنسان يؤمن بكلام الله عَزَّوَجَلَّ، وبكلام رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ، و﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾ [غافر: ٥٩]، وإنّك من هذه الدنيا راحل إلى الآخرة، وموقوف بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ. فلماذا اللعب والغرور؟ ولماذا السّهو والتخلف والتأخر عن طاعة الله تبارك وتعالى.

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يثبت أقدامنا وأقدامكم يوم تزل الأقدام، إنّه على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير؛ والحمد لله رب العالمين.

[١١] محاضرة: الحساب والجزاء

إنّ الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾[آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١ ﴾ [الأحزاب].

أما بعد، فإنّ أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أمّا بعد، فيا أيها الإخوة، أوّلا قبل أن أبدأ كلمتي، قد حصل في كلام المقدم شيء من التجاوز، فأَنَا أعْرَفُ بنفسي، فأنا طالب من طلاب العلم: أبو معاذ حسين بن محمود الحطيبي، من طلاب دار الحديث بدماج، من طلبة الشيخ مقبل بن هادي الوادعي رحمة الله عليه.

ونسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يعيننا وإياكم على أنفسنا، وأن يفقهنا في دينه وأن يثبتنا على كتابه وسنة رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ. وأهل السنة لا يحبون التجاوزات، وإنما دعوتهم تسير على التواضع، والتمسك بكتاب الله وبسنة رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ؛ ولكن أخونا قال هذا من باب إحسان الظن، فجزاه الله خيرا.

أيها الإخوة الكرام، حديثنا معكم في هذه الليلة بإذن الله عَزَّوَجَلَّ عن سورة من سور

القرآن، وما أحوجنا إلى مدارسة القرآن، وإلى فهم معانيه، وإلى تدبر أحكامه، وإلى الاتعاظ بمواعظه، وإلى الانزجار عما زجر الله عَزَّوَجَلَّ عنه في هذا القرآن العظيم، وإلى تعلّمه وحفظه، وإلى التحاكم إليه، يقول الله عَزَّوَجَلَّ في هذه السورة: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝١٥ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ۝١٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ۝١٩ ﴾ [الانفطار].

سورة عظيمة، يبين الله عَزَّوَجَلَّ فيها ذلك اليوم الذي يتغير فيه نظام هذا الكون، السماء تنفطر، وقد أخبر الله عَزَّوَجَلَّ في آية أخرى أنها تنشق، ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ ﴾ [الانفطار]، تناثرت وتبعثرت.

وهكذا يقول الله عَزَّوَجَلَّ في سورة أخرى: ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ ﴾ [التكوير]، فالنجوم تتساقط، والسماء تتشقق، بل وتتبدل وتتغير، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝٤٨ ﴾ [إبراهيم]، الكون كله يتغير، فالشمس تنكدر وتُكوّر والنجوم تتساقط، والسموات تتفطر.

السماوات السبع التي بناها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأحسن بناءها، وجعلها طباقا؛ والجبال تسير كما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ ﴾ [طه].

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ ﴾ [الانفطار]؛

حتى البحار لا تسلم من هذا التغير، فإنها تتفجر مياهها وتختلط، يختلط الماء المالح بالماء العذب.

﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ ﴾ [الانفطار]، تبعثر ترابها وأخرج أهلها وبعثوا وقاموا بين يدي الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

إذا حصلت هذه الأمور العظيمة، التي إذا تصفحت القرآن رأيت أن الله عَزَّوَجَلَّ يكررها في غير ما آية، ويصف قيام الناس لرب العالمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ ﴾ [المطففين].

ويقول الله عَزَّوَجَلَّ أيضا في كتابه الكريم: ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۝٦٨ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٦٩ ﴾ [الزمر].

إذا حصلت هذه الأمور، وقامت الساعة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ ﴾ [الانفطار]، ما هو الجواب؟ ما هو الجواب الذي قُرِّرَ في هذه الآيات؟ ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥ ﴾ [الانفطار]، إذا شاهد العبد هذه الأمور العظيمة من تغيّر هذا الكون بأكمله، علم أنّ الدنيا قد انتهت أيّامها وأنّ السّاعة قد قامت، وأنّ مَن في القبور قد بعثوا كما أخبر الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧ ﴾ [التغابن].

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾ [الانفطار]، هناك يعلم العبد علم اليقين ما جنت يداه، وما كسبت جوارحه، وما عمل بعينيه، وما عمل بسمعه، وما عمل بلسانه، وما عمل بيديه. هناك يعلم العبد أنه يحتاج إلى العمل الصالح، يحتاج إلى ما يبيِّض وجهه بين يدي الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾ [الانفطار]، هناك يعلم العبد أن المال لا ينفع، وأنّ الجاه لا ينفع، وأنّ الدنيا بأكملها لا تساوي شيئا، إذا كان قد فَرَّط في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، وارتكب ما حرم الله سبحانه.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾ [الانفطار]، ولهذا يرى أعماله ويرى صحائفه التي دُوِّن فيها الصغير والكبير، والتي كُتِب فيها النقير والقطمير، فيراها مملوءة بالأوزار والسَّيِّئات، يراها مملوءة بالأقوال المخالفات، يراها مملوءة بالعقائد الفاسدات، يرى فيها ما يغضب الله، يرى فيها ما يبعده عن رحمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

قال الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ۝٤٧﴾ [الأنبياء]، ويقول الله عَزَّوَجَلَّ أيضا في كتابه الكريم: ﴿يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝١١١﴾ [النحل].

وهكذا يبيِّن الله عَزَّوَجَلَّ أن الذي يُعْرِض عن طاعة الله عَزَّوَجَلَّ يرى أعماله السيئة والمخالفة والموبقات التي ارتكبها، فيتمنى أنه لم يرها، بل يتمنى أن يكون بينه وبينها أمدا بعيدا كما أخبر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في كتابه الكريم.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾ [الانفطار]، ولكن هل ينفعها هذا العلم؟ وهل تستطيع الاستدراك؟ وهل تقدر على الرجوع؟ وهل تستطيع أن تقوم بما فات، فتصلح الأعمال والأقوال وتغير الاتجاه والمسار؟

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [المؤمنون].

ويقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [المنافقون].

انتهى الأوان، ذهبت الساعات، انقضى العمر، رحل من الدنيا، لا يستطيع أن يعود إليها، وانما يعلم فإن كان صالحا فهنيئا له، وإن جمع السيئات والأوزار تزداد حسرته وندمه؛ ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ ﴾ [الانفطار].

ثم يقول الله عَزَّوَجَلَّ معاتبا هذا الإنسان الذي فرَّط في طاعة الرحمن، واتّبَع هواه والشيطان: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ﴾ [الانفطار]، ما الذي خدعك؟ ما الذي غَشَّك؟ ما الذي أوصلك إلى هذه المرحلة فعصيته؟

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ﴾ [الانفطار]، وذكر من أسماء الله عَزَّوَجَلَّ الكريم؛ الذي أكرمك في الدنيا، أنعم عليك، أعطاك، أعَدَّك، أمَدَّك، أوْجَدَك من العدم، أعطاك السمع والبصر والفؤاد والعقل واليدين والصحة والمال والبنين.

ما الذي غرَّك حتى عصيته؟ ما الذي غَرَّك حتى خالفتَ أمره؟ ما الذي غَرَّك حتى ابتعدت عن ما جاء في شرعه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ﴾ [الانفطار]، والآية تعم كل إنسان. قال بعض أهل العلم: المراد بها الكافر الذي يلقى الله عَزَّوَجَلَّ بالسَّيِّئات والأوزار. ولكنّه

يُخْشَى على المسلم أن يكون من هؤلاء الذين يُخاطبون بهذا الخطاب إذا فرّط في طاعة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وجاء عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦ ﴾ [الانفطار]، فَقَالَ: «غَرَّهُ وَاللهِ جَهْلُهُ» [أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٩١٧٤)].

غَرَّه جهله بالله، وبعظمة الله، وبقدرة الله، وبلقاء الله، وبعذاب الله، وبجنة الله، وبنار الله؛ «غَرَّهُ وَاللهِ جَهْلُهُ» فارتكب ما حرّم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦ ﴾ [الانفطار]، أين الإحسان؟ أين ردّ المعروف؟ أين شكر الجميل؟ أين شكر النعم؟

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ ﴾ [الانفطار]، من الذي خلقك إلّا الله؟ من الذي أوجَدَك؟ إنّه الله. مَن الذي أكرمك؟ إنه الله. مَن الذي أعطاك سمعا وبصرا وعقلا؟ إنّه الله. من الذي أنزل إليك هذا القرآن العظيم؟ إنّه الله. من الذي بعث إليك رسولا بشيرا ونذيرا؟ إنه الله.

﴿ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ٧ ﴾[الانفطار]، جعلك في هذه الصورة الحسنة وفي هذه الخلقة الجميلة التي تتفاخر بها، إذًا أين شكر النعم؟ أين الرجوع إلى الله؟ أين عبادة الله؟ أين القيام بما أراد الله عَزَّوَجَلَّ منك في الدنيا؟ قال الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ٥٨ ﴾ [الذاريات].

ويقول سبحانه: ﴿ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ١١٥ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ١١٦ ﴾ [المؤمنون].

ويقول سبحانه: ﴿ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ٣٦ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ٣٧

﴿ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ [القيامة].

﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ ﴾ [الانفطار]، لو خلقت بغير بصر من الذي يعطيك البصر؟ لو خلقت بغير عقل من أين تأتي بالعقل؟ لو خلقك الله عَزَّوَجَلَّ بغير يدين ورجلين من الذي يصنع لك ذلك؟ لو خلقك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مشوها من الذي يحسن خلقتك؟

﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ ﴾ [الانفطار]، قال بعض السلف رحمهم الله: لو شاء أن يجعلك حمارا لجعل، ولو شاء أن يجعلك كلبا لجعل، ولو شاء أن يجعلك خنزيرا لجعل، ولو شاء أن يجعلك حشرة لجعل؛ ولكنه جعلك في هذه الخلقة الجميلة المستوية المستقيمة المعتدلة.

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [التين]، إذا كنت تعترف لله عَزَّوَجَلَّ بالفضل، أين الشكر والعبادة؟ أين الشكر والطاعة؟ أين الاستقامة على شرعه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟ إذا كانت هذه النعم التي تحملها في بدنك هي من الله جَلَّ وَعَلَا، فكيف بغيرها من النعم؟ إذًا أين شكر النعم؟ وأين عبادة الله جَلَّ وَعَلَا.

﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ ﴾ [الانفطار]، قال الله جَلَّ وَعَلَا بعدها: ﴿ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾ ﴾ [الانفطار]، يا سبحان الله! بعد هذا الإكرام، وبعد هذا الإحسان، وبعد هذا الإنعام، ومع ذلك لا تزالون تُكَذِّبون بالجزاء والحساب. تُكَذِّبون بلقاء الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وأنّكم بين يديه مسؤولون، وأنكم على أعمالكم وأقوالكم وأفعالكم محاسبون؛ هذا حال كثير من الناس إلّا من رحم الله.

ولهذا لا يُعِدُّون العُدَّة، ولا يستعدون للقاء الله عَزَّوَجَلَّ، بل تراهم في هذه الدنيا يمرحون، وفيها يفرحون، وكأنهم ليسوا بمكلفين، لا يؤمرون ولا ينهون. ما الفرق بينهم وبين سائر البهائم؟ ما الفرق بينهم وبين الكفرة الزنادقة الذين قال الله عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ١٢﴾ [محمد]، ويقول سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾ [الأعراف].

﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ٩﴾ [الانفطار]، والمراد بالدين في هذه الآية الجزاء والحساب، فإن الذي لا يكذب بالجزاء والحساب يُعِدُّ العدة، ويستعد لذلك اليوم العظيم، ويبادر إلى طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، ويبتعد عن معصيته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يترك البدع جانبا، والسيئات جانبا، والكفر والنفاق والشقاق وكل ما يخالف شرع الله جَلَّ وَعَلَا؛ ويعبد الله على بصيرة، ويستقيم على دين الله عَزَّوَجَلَّ ظاهرًا وباطنًا.

قال: ﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ٩ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠﴾ [الانفطار]، ومع هذا كله إن لم تشكروا نعم الله عَزَّوَجَلَّ، ولم تتفكروا فيما جعل الله فيكم من الآيات والعبر، مع ذلك ينبغي أن تعلموا أنّ معكم من يلازمكم، ومَن لا يترككم سفرا ولا حضَرا، ولا صحة ولا مرضًا، ولا ليلا ولا نهارًا؛ معكم من يُقَيِّدُ الأقوال والأفعال، ويكتب الصغير والكبير، كما أخبر الله في كتابه الكريم: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ١٨﴾ [ق].

أين المفر يا عباد الله؟ إذا كنت تؤمن أنَّ معك مَن يُلازِمك ويُقَيِّد عليك أقوالك وأفعالك.

﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ٩ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ١٢﴾ [الانفطار]، أينما ذهبتَ فالله عَزَّوَجَلَّ مُطَّلِع عليكَ، أينما ذهبتَ فالله عَزَّوَجَلَّ يراك، أينما ذهبتَ فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليك رقيب؛ ومع ذلك جعل عليك من يحرسك

ومن يلازمك ومن يُقَيِّد عليك الصغير والكبير.

﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [ق]، لو كنا نُؤمِن بهذه الآية حق الإيمان والله وبالله وتالله لحاسبنا أنفسنا كثيرا عن أقوالنا وأفعالنا وحركاتنا وسكناتنا، لكن ضَعُفَ الإيمان في القلوب، وانتفى، وصارت الجوارح مشرقة ومغربة تخبط خبط عشواء وتخالف الصراط المستقيم والهدي القويم الذي جاء في كتاب الله وفي سنة رسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

﴿ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الانفطار]، ثم بعد ذلك عباد الله، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ ﴾ [الانفطار]، الذين يراقبون الله عَزَّوَجَلَّ في السِّرِّ والعلن، الذين أعمالهم دائما أعمالُ برّ وإحسان.

الأبرار الذين يؤمنون بالله جَلَّوَعَلَا ظاهرا وباطنا، يراقبون الله في أقوالهم، يراقبون الله في أفعالهم، يراقبون الله في عبادتهم، يراقبون الله في معاملتهم، يراقبون الله في أهاليهم، يراقبون الله مع جيرانهم، يراقبون الله في كل صغيرة وكبيرة، يتعبون في الدنيا من أجل عبادة الله جَلَّوَعَلَا، يصبرون ويصابرون ويجاهدون أنفسهم، فلذلك كانوا في ذلك النعيم.

وما أعظم ذلك النعيم! واقرأ في القرآن الكريم، وانظر ما أعَدّ الله عَزَّوَجَلَّ لعباده الأبرار. كم ترى من الآيات الكثيرة، التي يصعب حصرها في مقام واحد، يقول الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ ﴾ [القمر].

ما أعظم هذه الكرامة! يقول الله عَزَّوَجَلَّ أيضًا في كتابه الكريم: ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يس].

ويقول الله جَلَّوَعَلَا في كتابه الكريم: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [القيامة].

ويقول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦].

ويقول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَامُهُ مِسْكٌ ۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [المطففين]، في نعيم.

وكم سترى من الآيات والأحاديث التي فيها ما أعَدّ الله عَزَّوَجَلَّ لأهل الجنة، ما فوق الحصر، بل وما يعجز عنه الـمُـعَبِّر؛ فقد قال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ: يَقُولُ الله تَعَالَى: «**أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ، مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ذُخْرًا بَلْهَ، مَا أُطْلِعْتُمْ عَلَيْهِ**»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة]؛ [أخرجه البخاري (٤٧٨٠) ومسلم (٢٨٢٤) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وأخرجه مسلم (٢٨٢٥) من حديث سَهْلَ بْنَ سَعْدٍ السَّاعِدِيَّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ].

كلّ ما رأيته من المناظر الجميلة والأشياء الحسنة، كلّ ما سمعت به في الدنيا من الأمور التي تسعد بها النفوس، كلّ ما خطر على بالك، فإنّ الجنة أعظم من ذلك، وأرفع من ذلك، وأعلى من ذلك، كل ذلك للأبرار؛ ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ ﴾ [الانفطار].

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [الانفطار]، الذين لا يشكرون نعم الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يعبدونه حقّ عبادته، أقوالهم فجور وأعمالهم فجور وعقائدهم فجور ومعاملتهم فجور.

﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [الانفطار]، يا ترى كيف هذا الجحيم؟ قد وصفه الله عَزَّوَجَلَّ لنا في كتابه الكريم، لكن أعرضنا عن القرآن، وعن تدبر القرآن، إلا من رحم الله عَزَّوَجَلَّ؛ بل إنّ منا مَن يقرأ القرآن ويوجهه على ما اشتهت نفسه، وبل وعلى ما يسير

هواه، فيقول القرآن ويروي آيات القرآن بما يحيكه في قلبه ويعتقده من المعتقدات الفاسدة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

أخبر الله عَزَّوَجَلَّ أنّ أهل الجحيم فيها يعذبون ليلا ونهارا: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزخرف]، ولا يقف ولا يستريحون. يأكلون من النار ويشربون من النار ويلبسون من النار ويفترشون من النار ويستظلون بالنار. أين يفرون يا عباد الله؟ أين يفر من وصل إلى ذلك المكان؟

﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾﴾ [الانفطار]، وليس هذا في ذلك المقام فحسب، بل يعذبون في قبورهم، ويوم بعثهم ونشورهم، وبين يدي الله عَزَّوَجَلَّ، ثم يقادون إلى تلك النار التي طعامهم فيها من النار كما أخبر الله في كتابها الكريم: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾﴾ [الدخان].

ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾﴾ [المزمل]، طعامهم يلتصق بحناجرهم، لا يستطيعون إخراجه ولا بلعه.

ويقول الله جَلَّوَعَلَا واصفا شرابهم: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾ [إبراهيم].

ويقول سبحانه: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف]، الفراش من النار واللحاف من النار؛ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن

فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الأعراف]، ثيابهم من النار ولا حول ولا قوة إلا بالله.

يا من تفتخر بملابسك وأنت تعصي الله جَلَّوَعَلَا، أما تخشى على نفسك أن تلبس ثيابا من النار تُفَصَّل على قدر جسمك وحجمك؛ قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الحج].

ويقول الله جَلَّوَعَلَا في كتابه الكريم: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ [النساء: ٥٦]، ترجع من جديد ويكرر عليهم العذاب؛ ولهذا قال ربنا في كتابه: ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الزخرف]، إياك أن تكون ممن يكره الحق ويكره أهل الحق؛ إياك أن تكون ممن يصدُّ عن سبيل الله، ﴿ لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الزخرف].

ويقول الله جَلَّوَعَلَا أيضا في كتابه الكريم: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ﴾ [الأحزاب]، مَن الذي يدفع عنك عذاب الله؟ إذا قلّب وجهك في النار لا ينفعك المال ولا القبيلة ولا العشيرة ولا الأقارب ولا الحزب ولا غير ذلك، ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأحزاب].

وفي هذه الآية يقول الله: ﴿ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الانفطار]، ليس هنا كرامة ولا استراحة، بل إنّ النار تطارد أصحابها وتلازمهم، كما أخبر الله جَلَّوَعَلَا في سورة الفرقان أنها لهم كالغريم لغريمه لا تفارقهم لحظة من اللحظات، بل سيتكرر عليهم العذاب، وتتوالى عليهم العقوبات؛ وفي هذه الآية يقول الله: ﴿ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ ﴾[الانفطار]، تفخيم وتعظيم لشأن ذلك اليوم، الذي يجمع به ربنا سبحانه الأولين والآخرين في صعيد واحد، حافية أقدامهم، عارية أجسامهم، شاخصة أبصارهم؛ الشمس قد دنت من العباد قدر ميل، وهم ينتظرون فصل القضاء، يهمهم شأنهم.

هم عراة لكن لا ينظر بعضهم لبعض، لأنهم قد غرقوا في عرقهم وأعمالهم، كلّ مشغول بنفسه، كلّ ينظر إلى ما قدَّمت يداه، كل ينتظر رحمة الله.

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الانفطار]، الولد يتخلى عن والده، والمرأة تتخلى عن زوجها، والصديق يتخلى عن صديقه، والخليل يتخلى عن خليله، حتى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يذهب إليهم العباد فيأتونهم واحدا واحدا، وكلهم يقول: «**نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي**» [أخرجه البخاري (٤٧١٢) ومسلم (١٩٤) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ].

يقول الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم: ﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ ﴾ [المعارج]، خذوا أهلي إلى النار، خذوا أبنائي إلى النار، خذوا عشيرتي، خذوا قبيلتي، خذوا مَن في الأرض جميعا وأنجو من عذاب الله تبارك وتعالى. لماذا عباد الله؟ لأنه عاين العذاب ورأى العقوبة الأليمة. إذًا فأين نحن من القرآن؟ أين نحن من تدبر كلام الله تبارك وتعالى؟ أين نحن من عبادة الله عَزَّوَجَلَّ؟

﴿ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩ ﴾ [الانفطار]، لو جئت بالأرض ومَا فيها لتفتدي بها من عذاب الله ما قبل الله عَزَّوَجَلَّ ذلك منك، إن كنت قد فرّطت في طاعته وتوحيده، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٩١ ﴾ [آل عمران].

فالله الله عباد الله بالرجوع إلى الله تبارك وتعالى، والاستقامة على شرعه، نترك الباطل جانبا والشر جانبا، ونقبل على عبادة الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإننا نعيش في هذه الدنيا عمرا واحدا خمسين سنة، ستين سنة، سبعين سنة، كم عساك أن تُعَمِّر في الدنيا؟ ثم إلى أين المرجع والمآل؟ إنّه إلى الله، فإما أن تقضي هذا العمر في طاعة الله وفي عبادة الله وفي الاستمساك بكتاب الله وبسنة رسوله، وإما أن تتبع هواك وتتبع بنيات الطريق وتنحرف عن الصراط المستقيم؛ والله جَلَّوَعَلَا الموعد، ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٧ ﴾ [البقرة].

نسأل الله جَلَّوَعَلَا بمَنِّه وكرمه وجودِه وإحسانه، أن يُوَفِّقَنا وإيّاكم لما يحبه ويرضاه، وأن يجنبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح، إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير، والحمد لله رب العالمين؛ وبارك الله فيكم.

[١٢] الحوض المورود

◈ الخطبة الأولى:

إنّ الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾[آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١ ﴾ [الأحزاب].

أما بعد، فإنّ أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون عباد الله، لازلنا معكم في بيان مشاهد العرصات وما يحصل للعباد يوم القيامة من المواقف الكثيرة التي ذكرها الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه، وذكرها نبينا صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم في سنته.

وحديثنا في هذا المقام هو عن الحوض المورود، الذي يكرم الله عَزَّوَجَلَّ به نبيه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

قال الإمام الطحاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والحوض الذي أكرمه به غياثا لأمته يوم القيامة، والحوض هو الماء النازل من الكوثر إلى عرصات القيامة للنبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

وقال بعض أهل العلم: هو الكوثر.

وقال غيرهم: بل هو غيره؛ وهو الصحيح.

وقد أشار الله عَزَّوَجَلَّ وذكر في كتابه الكريم قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١﴾ [الكوثر].

وأما في سنته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ فالأحاديث كثيرة ومتواترة؛ رواها أكثر من ثلاثين صحابيا عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، حتى قال بعض أهل العلم:

مِمَّا تَوَاتَرَ حَدِيثُ: مَنْ كَذَبْ ... وَمَنْ بَنَى لله بَيْتًا وَاحْتَسَبْ

وَرُؤْيَةٌ شَفَاعَةٌ وَالْحَوْضُ ... وَمَسْحُ خُفَّيْنِ وَهَذِي بَعْضُ

وأجمع أهل العلم على إثبات هذا الحوض العظيم بأوصافه الكثيرة التي ثبتت في سنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، إجماعا متيقنا مأخوذا ومعتمدا على أدلة الكتاب والسنة.

هذا الحوض يكون نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ لأمته فرطا يوم القيامة عند ذلك الحوض، والفرط هو الذي يسبق الجيش ليصلح لهم الأحواض ويهيئ لهم الماء، وقد جاء في الصحيحين عن جماعة من الصحابة أنه قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «**أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الحَوْضِ**» [أخرجه البخاري (٦٥٧٥) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه مسلم (٢٢٨٩) من حديث جندب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ وأخرجاه في مواضع أخر في «الصحيحين» عن غيرهما من الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ].

«**أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الحَوْضِ**» أي فرط هذه الأمّة، وهذا يدل على فضيلتها ومكانتها وإكرام الله عَزَّوَجَلَّ لها.

هذا الحوض مكانه في العرصات، وموضعه قبل الميزان والصراط على أصح الأقوال؛ قاله القابسي وجماعة من أهل العلم.

قال القرطبي في «التذكرة»: «والمعنى يقتضيه فإن الناس يخرجون عطاشاً من قبورهم

كما تقدم، فيقدم قبل الصراط والميزان والله أعلم» [كما في «التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة» (ص/ ٧٠٣)]، أي هذا هو المناسب للمقام فإنّ الناس يقومون من قبورهم عطاشا فينطلقون للشرب من حوض النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، أي قبل تلك المشاهد الأخرى من الميزان والصراط والحساب وأخذ الكتاب وتطاير الصحف؛ وإلا فليس هناك دليل صريح ينص على هذه الأولية.

أيها الناس عباد الله، حوض النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ جاءت في أوصافه أحاديث وفي بيان تفاصيله روايات عدة، تدل على أنّ كل ما جاء في الأدلة هو في وصف حوض نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وهل لغيره من الأنبياء أحواض؟

روى الإمام الترمذي عن سمرة، وابن ماجة عن أبي سعيد، وابن أبي الدنيا عن ابن عباس، وجاء عن غيرهم، وهو في «الصحيحة» للعلامة الألباني أنّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضًا وَإِنَّهُمْ يَتَبَاهَوْنَ أَيُّهُمْ أَكْثَرُ وَارِدَةً، وَإِنِّي أَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ وَارِدَةً**» [وهذا اللفظ أخرجه الترمذي في «سننه» (٢٤٤٣) من حديث سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]. ولهذا قال أهل العلم على صحة هذا الحديث.

حوض نبينا أعظم وأكبر وأجل، وما جاء في السنة النبوية من الأوصاف العظيمة فهي أوصاف لذلك الحوض دون سائر الأحواض، فهو الحوض المورود الذي جعل من خصائصه تلك الأوصاف، ولكثرة الواردين عليه.

هذا الحوض، جاء من حديث ثَوْبَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**أَنَا عِنْدَ حَوْضِي أَذُودُ النَّاسَ عَنْهُ لِأَهْلِ الْيَمَنِ، إِنِّي لَأَضْرِبُهُمْ بِعَصَايَ حَتَّى يَرْفَضَّ عَلَيْهِمْ، وَإِنَّهُ لَيَغُتُّ فِيهِ مِيزَابَانِ مِنَ الْجَنَّةِ، أَحَدُهُمَا مِنْ وَرِقٍ وَالْآخَرُ مِنْ ذَهَبٍ، طُولُهُمَا مَا بَيْنَ بُصْرَى وَصَنْعَاءَ - أو مَا بَيْنَ أَيْلَةَ وَمَكَّةَ، أو قَالَ: مِنْ مَقَامِي هَذَا إلى عُمَانَ**» [أخرجه معمر بن راشد في «جامعه» (٢٠٨٥٣)]، وفي رواية: «**يَشْخَبُ فِيهِ مِيزَابَانِ مِنَ الْجَنَّةِ**» [أخرجها مسلم (٢٣٠٠)، من حديث أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

وفي حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «...**وَيَسِيرُ**

لِي نَهَرٌ مِنَ الْكَوْثَرِ إِلى حَوْضِي» [أخرجه الآجري في «الشريعة» (١٠٩٦)].

إذًا فيمد فيه ميزابان من الجنة، وقد يقول قائل: الجنة في أعلى عليين في السماء السابعة، وحوض النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في عرصات القيامة. فكيف يكون ذلك؟ أمور الآخرة تختلف عن أمور الدنيا، وهي من الأمور الغيبية التي يجب علينا التسليم بها والإذعان والإيمان والإيقان.

هذا أمر أراده الله عَزَّوَجَلَّ أن يمد ميزابان من السماء السابعة، من جنة الخلد إلى عرصات القيامة إلى حوض النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

أيها المؤمنون عباد الله، وأما أوصاف هذا الحوض فقد ثبتت في صحيح الإمام البخاري ومسلم، عن جماعة كثيرين من أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، وهكذا عند أصحاب السنن والمسانيد أن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال في مجمل تلك الأحاديث: «**حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ، مَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ اللَّبَنِ، وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ المِسْكِ، وَكِيزَانُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهَا فَلاَ يَظْمَأُ أَبَدًا**» [أخرجه البخاري (٦٥٧٩)، من حديث عَبْد الله بْن عَمْرٍو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ]، وَعَنْ حُذَيْفَةَ، أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**بَيْنَ حَوْضِي كَمَا بَيْنَ أَيْلَةَ وَمُضَرَ آنِيَتُهُ أَكْثَرُ، أو قَالَ: مِثْلُ ـ عَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ، مَاؤُهُ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وَأَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَبْرَدُ مِنَ الثَّلْجِ، وَأَطْيَبُ رِيحًا مِنَ الْمِسْكِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهُ**» [أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٣٣١٧)].

انظر إلى هذه الأوصاف العظيمة: «**آنِيَتُهُ كَعَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ**»، ومَن الذي يستطيع أن يعدّها؟ ثم قال: «**مَاؤُهُ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وَأَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَبْرَدُ مِنَ الثَّلْجِ**»، الثلج ربما يتضرّر الإنسان به في الدنيا، وأما الآخرة فإنها تختلف تماما. إنّ الثلج في الدار الآخرة في ذلك الحوض المورود يكون من النعيم المقيم؛ وأما في الدنيا ربما يتضرر العبد ويمرض إذا أكل من هذا الثلج.

قال: «**وَأَطْيَبُ رِيحًا مِنَ الْمِسْكِ**».

ولقد جاء في أوصافه في طوله وعرضه ومساحته أحاديث كثيرة، فجاء في بعضها: «**إِنَّ قَدْرَ حَوْضِي كَمَا بَيْنَ أَيْلَةَ وَصَنْعَاءَ مِنَ اليَمَنِ**» [أخرجه البخاري (٦٥٨٠)، ومسلم (٢٣٠٣)، من حديث أَنَس بْن مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]؛ وفي رواية لمسلم: «**أَوْ مِثْلَ مَا بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَعَمَّانَ**» [أخرجه مسلم (٢٣٠٣)، من حديث أَنَس بْن مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]؛...

وغير ذلك من الروايات، وفي بعضها: «**حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ**» [أخرجه البخاري (٦٥٧٩)، من حديث عَبْد الله بْن عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

قال أهل العلم المحققون: لا تعارض بين هذه الروايات، فإنّ هذه المسافات يقطعها أصحابها فيما يقارب الشهر، أو أنّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ حَدَّث كل أهل بلد بما يعرفون.

فإذا جاءه أهل اليمن وسألوه عن الحوض قال: «**إِنَّ قَدْرَ حَوْضِي كَمَا بَيْنَ أَيْلَةَ وَصَنْعَاءَ مِنَ اليَمَنِ**» [أخرجه البخاري (٦٥٨٠)، ومسلم (٢٣٠٣)، من حديث أَنَس بْن مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]؛ وإذا جاء أهل الشام قال: «**أَمَامَكُمْ حَوْضٌ كَمَا بَيْنَ جَرْبَاءَ وَأَذْرُحَ**» [أخرجه البخاري (٦٥٧٧)، ومسلم (٢٢٩٩)، من حديث ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا].

أو أنّه يقال: الأقلّ يدخل تحت الأكثر، وهي روايات صحيحة ثابتة عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم في هذا الحوض العظيم الذي أخبر عنه في هذه الأحاديث.

◈ الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، حمدًا كثيرًا طيِّبًا مباركًا فيه، كما يُحِبّ ربنا ويرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

أمّا بعد، يا تُرَى من الذي يشرب من هذا الحوض؟ ومن الذي يتنعّم بهذا النعيم؟ هل كل الناس؟

جاء عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في الصحيحين من حديث أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، أَنَّ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ قَالَ: يَا رَسُولَ الله، أَلاَ تَسْتَعْمِلُنِي كَمَا اسْتَعْمَلْتَ فُلاَنًا؟ قَالَ: «**سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أُثْرَةً، فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الحَوْضِ**» [أخرجه البخاري (٣٧٩٢)، ومسلم (١٨٤٥)، وجاء في مواضع أخر عن غيره، عن جماعة من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ]، فمن صبر على دين الله عَزَّوَجَلَّ وتمسك بسنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فهو من الذين يشربون من هذا ولا يظمئون بعد ذلك أبدًا.

وقد جاء من حديث خَوْلَةَ بِنْتِ حَكِيمٍ قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ لَكَ حَوْضًا؟ قَالَ: «**نَعَمْ، وَأَحَبُّ مَنْ وَرَدَهُ عَلَيَّ قَوْمُكِ**» [أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٧٣١٥)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٣٢٦٧)].

وفي صحيح الإمام مسلم من حديث ثوبانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يصف عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ شرب الناس وورودهم على الحوض؛ عَنْ ثَوْبَانَ، أَنَّ نَبِيَّ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِنِّي لَبِعُقْرِ حَوْضِي أَذُودُ النَّاسَ لِأَهْلِ الْيَمَنِ أَضْرِبُ بِعَصَايَ حَتَّى يَرْفَضَّ عَلَيْهِمْ**» [أخرجه مسلم (٢٣٠١)]. فأهل اليمن الصالحون المؤمنون المتقون هم مِن أَوّل مَن يَرِدُ على حوض النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

وجاء عن ثَوْبَان حديث عن الحوض وفيه: سَمِعْتُ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**أَوَّلُ النَّاسِ وُرُودًا عَلَيْهِ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ**» [أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٢٣٦٧)، وابن

أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٤٥٩)]، إذًا فهم أوّل من يشرب على الحوض، ومن أولئك الأنصار، ومنهم الصالحون من أهل اليمن، ومن تَمسَّك بدين الله عَزَّوَجَلَّ، ولهذا يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في حديث كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ: «**إِنَّهَا سَتَكُونُ بَعْدِي أُمَرَاءُ يَكْذِبُونَ وَيَظْلِمُونَ، فَمَنْ دَخَلَ عَلَيْهِمْ، فَصَدَّقَهُمْ بِكِذْبِهِمْ، وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَلَيْسَ مِنِّي، وَلَسْتُ مِنْهُ وَلَيْسَ بِوَارِدٍ عَلَيَّ الْحَوْضَ، وَمَنْ لَمْ يُصَدِّقْهُمْ بِكَذِبِهِمْ، وَيُعِنْهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَهُوَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ، وَهُوَ وَارِدٌ عَلَيَّ الْحَوْضَ**» [أخرجه أحمد في «مسنده» (١٨١٢٦)].

الذي يتمسك بدين الله عَزَّوَجَلَّ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ولا يعين على الظلم والفتن والشرور أيًّا كانت أسبابها أو مواردها، فإنّه الذي يرد على حوض النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ.

أيها الناس عباد الله، الحوض أدلّته متواترة، لم ينكره إلا شُذّاذ الناس من الخوارج والمعتزلة الذين ينكرون كثيرا من المغيبات مما صحت عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ؛ ولهذا فإنه عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول: «الرَّجْمُ حَدٌّ مِنْ حُدُودِ الله؛ فَلَا تُخْدَعُوا عَنْهُ، وَآيَةُ ذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ رَجَمَ، وَأَبُو بَكْرٍ رَجَمَ، وَرَجَمْتُ أَنَا بَعْدُ، وَسَيَجِيءُ قَوْمٌ يُكَذِّبُونَ بِالْقَدَرِ، وَيُكَذِّبُونَ بِالْحَوْضِ، وَيُكَذِّبُونَ بِالشَّفَاعَةِ، وَيُكَذِّبُونَ بِقَوْمٍ يَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ» [أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (٣٤٣)، بسند حسنه العلامة الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ].

وجاء عند ابن أبي عاصم بسنده، عَنِ ابْنِ بُرَيْدَةَ، قَالَ: شَكَّ عُبَيْدُ الله بْنُ زِيَادٍ فِي الْحَوْضِ، فَأَرْسَلَ إلى رَجُلٍ مِنْ مُزَيْنَةَ، وَإِلَى أَبِي بَرْزَةَ قَالَ أَبُو بَرْزَةَ: مَنْ كَذَّبَ بِهِ فَلَا سَقَاهُ الله مِنْه؛ [أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (٧٠٣)]؛ وجاء عند الإمام أحمد بسنده عَنْ عَبْدِ الله بْنِ بُرَيْدَةَ الْأَسْلَمِيِّ قَالَ: شَكَّ عُبَيْدُ الله بْنُ زِيَادٍ فِي الْحَوْضِ فَأَرْسَلَ إلى أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ فَأَتَاهُ فَقَالَ لَهُ جُلَسَاءُ عُبَيْدِ الله: إِنَّمَا أَرْسَلَ إِلَيْكَ الْأَمِيرُ لِيَسْأَلَكَ عَنِ الْحَوْضِ هَلْ سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ فِيهِ شَيْئًا؟ قَالَ: نَعَمْ. سَمِعْتُ رَسُولَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يَذْكُرُهُ «**فَمَنْ كَذَّبَ بِهِ فَلَا سَقَاهُ الله مِنْهُ**» [أخرجه أحمد في «مسنده» (١٩٧٦٣)]؛ وجاء عند أبي يعلى الموصلي بسنده، عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ عُبَيْدَ الله بْنَ زِيَادٍ قَالَ: يَا أَبَا

حَمْزَةَ، هَلْ سَمِعْتَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَذْكُرُ الْحَوْضَ؟ فَقَالَ: «**لَقَدْ تَرَكْتُ بِالْمَدِينَةِ لَعَجَائِزَ يُكْثِرْنَ أَنْ يَسْأَلْنَ اللهَ أَنْ يُورِدَهُنَّ حَوْضَ مُحَمَّدٍ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ» [أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٣٣٥٥)].

يا أيها الناس، هناك أقوام يُذَادُون عن الحوض ويُمْنَعُون من الشرب منه ويُحْرَمون هذا الحرمان العظيم، مَنْ هؤلاء الأقوام؟ هم الذين يُحدِثون في دين الله عَزَّوَجَلَّ، بالشرك بالله والبدع والخرافة وسائر المنكرات، الذين يقعون في سفك الدماء والظلم والإعانة على المنكر والإحداث في شؤون الأمة والوقوع في الجرائم.

ففي حديث كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ، قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ تِسْعَةٌ وَبَيْنَنَا وَسَائِدُ مِنْ أَدَمٍ أَحْمَرَ، فَقَالَ: «**إِنَّهُ سَيَكُونُ بَعْدِي أُمَرَاءُ فَمَنْ صَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ وَلَنْ يَرِدَ عَلَيَّ الْحَوْضَ، وَمَنْ لَمْ يُصَدِّقْهُمْ بِكَذِبِهِمْ وَلَمْ يُعِنْهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَهُوَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ وَسَيَرِدُ عَلَيَّ الْحَوْضَ**» [أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢٦٤)، وغيره، وأخرجه شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ، وصحّحه العلامة الألباني].

وجاء في أحاديث عن جماعة من الصحابة، ومنها أَنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ذكر الحوض، وذكر توارد الناس عليه، وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وَإِنَّ أُنَاسًا مِنْ أَصْحَابِي يُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ**» [أخرجه البخاري (٣٣٤٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا].

وفي رواية قال: «**لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ الْحَوْضَ رِجَالٌ مِمَّنْ صَاحَبَنِي، حَتَّى إِذَا رَأَيْتُهُمْ وَرُفِعُوا إِلَيَّ اخْتُلِجُوا دُونِي**» [أخرجها مسلم (٢٣٠٤)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

وفي رواية قال: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَأَذُودَنَّ رِجَالًا عَنْ حَوْضِي، كَمَا تُذَادُ الغَرِيبَةُ مِنَ الإِبِلِ عَنِ الحَوْضِ**» [أخرجها البخاري (٢٣٦٧)، ومسلم (٢٣٠٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

وفي رواية: «**أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الحَوْضِ، فَمَنْ وَرَدَهُ شَرِبَ مِنْهُ، وَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهُ أَبَدًا، لَيَرِدُ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ**»، قَالَ أَبُو حَازِمٍ: فَسَمِعَنِي النُّعْمَانُ بْنُ أَبِي عَيَّاشٍ، - وَأَنَا أُحَدِّثُهُمْ هَذَا، فَقَالَ: هَكَذَا سَمِعْتَ سَهْلًا، فَقُلْتُ:

نَعَمْ، قَالَ: وَأَنَا - أَشْهَدُ عَلَى أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، لَسَمِعْتُهُ يَزِيدُ فِيهِ قَالَ: «**إِنَّهُمْ مِنِّي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لاَ تَدْرِي مَا بَدَّلُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي**» [أخرجها البخاري (٧٠٥٠)، من حديث سَهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

فيا ويل أهل البدع والإحداث، ويا ويل أهل الشرك والنفاق يوم أن يُحرَموا من الشرب من حوض النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ. فليحذر المسلم من البدع أشدّ الحذر، وليَتَوَقَّ في دينه، وليسألْ عن دينه صغيرا كان أو كبيرا في كلّ أموره.

فإنّ من وقع في البِدَع والإحداث يُعاقب بهذه العقوبة في عرصات القيامة، كيف يكون حاله، وأمّة محمد يرِدون على حوضه المورود فيشربون منه ويتلذذون، وهو يُذادُ عنه ويُحرَم.

وَمن حُرم من الحوض، فدَلّ على أنّ ما بعده أشدّ، فإنّه إن حُرِم من الحوض دليل على إساءته، دليل على تغييره وتبديله، فكيف يكون حاله عند الميزان، وكيف يكون حاله عند تطاير الصحف؟ وكيف يكون حاله عند الصراط إذا كان قد طُرِد وأُبْعِد عن الشرب من حوض النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم؟

وقد ذكر أهل العلم كابن عبد البر والإمام النووي وغيرهم من العلماء: أنّ هذا يدخل فيه أهل البدع والإحداث في دين الله عَزَّوَجَلَّ.

وهذا يدلنا على خطورة البدع، فإنّ أصحابها تُرَدُّ أعمالهم ولا تقبل منهم ولا يستفيدون منها، ويُحرَمون في الدار الآخرة، بل ربما يخشى عليهم من الحرمان أن لا يوفقوا في هذه الدنيا، ففي الحديث عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**أَبَى الله أَنْ يَقْبَلَ عَمَلَ صَاحِبِ بِدْعَةٍ حَتَّى يَدَعَ بِدْعَتَهُ**» [أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (٣٩)].

وأما في الدار الآخرة، فقد سمعتَ أنه يحرم من الشرب في الحوض.

فالحذر الحذر عباد الله! علينا أن نتمسك بدين الله وبسنة رسول الله

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ حتى ننال هذه الكرامة، الشرب من ذلك الحوض الذي: «**مَاؤُهُ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وَأَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَبْرَدُ مِنَ الثَّلْجِ، وَأَطْيَبُ رِيحًا مِنَ الْمِسْكِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهُ**» [أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٣٣١٧)].

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ بِمَنِّهِ وجُودِه وكَرَمِه أن يسقينا من حوض نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وأن لا يجعلنا من المحرومين المبعَدِين، إنّه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير.

والحمد لله رب العالمين.

[١٣] الشفاعة العظمى

◈ الخطبة الأولى:

إنّ الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾[آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١ ﴾ [الأحزاب].

أما بعد، فإنّ أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون إنّ من المواقف العظيمة التي يمر بها العباد يوم المعاد، ما يحصل لهم من الكرب العظيم، فيحتاجون إلى مَن يشفع لهم إلى ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

هذا أمر عظيم ذكره الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم، وفي سنة نبيه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، ألَا وهي الشفاعة. والشفاعة أعظم من الشفاعة في أرض المحشر، ولهذا فإنّ أهل العلم يعرفونها بأنّها: التوسط للغير في جلب منفعة أو دفع مضرة.

وقد ذكر الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم أن الشفاعة منها ما هي منفية باطلة، ومنها ما هي شرعية بشروطها؛ **فأما الباطلة**: فهي ما يتعلق بها المشركون في أصنامهم فيصرفون لهم العبادات، ويعتقدون أنهم يشفعون لهم عند الله تبارك وتعالى، ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

وأما الشفاعة الشرعية: فإن الله عَزَّوَجَلَّ جعل لها شروطًا في كتابه الكريم، فإنّها لا تكون إلا لمن رضي الله عَزَّوَجَلَّ عنه سواء كان شافعا أو مشفوعا، من أهل الإسلام والتوحيد، ولا تكون إلا بإذنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، ويقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

في آيات كثيرة يُبَيِّن الله عَزَّوَجَلَّ أنّ الشفاعة لا تكون إلا بإذنه، وأنه لا يرضى بالشفاعة إلا لأهل التوحيد والإسلام، وأنه لابد من الرضا عن الشافع نفسه.

أيها الناس عباد الله، الشفاعة في الآخرة ذكر أهل العلم أنها خاصة وعامة.

فأما الشفاعة العامة: فهي الشفاعة لأهل الكبائر من هذه الأمة ممن لفحتهم النار، فيشفع لهم بالخروج منها. وهذه عامة للملائكة والنبيين والمؤمنين والأفراط، كما ثبت ذلك في الأحاديث الكثيرة.

وهذه هي الشفاعة التي حصل الخلاف الشديد بين أهل السنة وأهل البدع والأهواء، فأنكرها الخوارج والمعتزلة. قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي» [أخرجه الترمذي (٢٤٣٥)، من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ]. وفي «الصحيحين» عنه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلَّا الله، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ شَعِيرَةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلَّا الله، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ بُرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلَّا الله، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ**»، وفي رواية: «**مَا يَزِنُ بُرَّةً**» [أخرجه البخاري (٤٤)، ومسلم (١٩٣)].

وهكذا يقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم كما في «الصحيحين» من حديث أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وجاء عن غيره، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ**

الجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، يَقُولُ اللهُ: مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيَخْرُجُونَ قَدْ امْتُحِشُوا وَعَادُوا حُمَمًا، فَيُلْقَوْنَ فِي نَهَرِ الحَيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ - أو قَالَ: حَمِيَّةِ السَّيْلِ -»، وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «أَلَمْ تَرَوْا أَنَّهَا تَنْبُتُ صَفْرَاءَ مُلْتَوِيَةً» [أخرجه البخاري (٦٥٦٠)، ومسلم (١٨٤)].

وجاء في حديث أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «فَيَشْفَعُ النَّبِيُّونَ وَالمَلاَئِكَةُ وَالمُؤْمِنُونَ، فَيَقُولُ الجَبَّارُ: بَقِيَتْ شَفَاعَتِي، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ، فَيُخْرِجُ أَقْوَامًا قَدْ امْتُحِشُوا، فَيُلْقَوْنَ فِي نَهَرٍ بِأَفْوَاهِ الجَنَّةِ، يُقَالُ لَهُ: مَاءُ الحَيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ فِي حَافَتَيْهِ كَمَا تَنْبُتُ الحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ...» الحديث.

إذًا فخروج الموحدين من النار بشفاعة الشافعين، هذا من معتقد السلف الكرام رضي الله تعالى عنهم مما جاء في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وهذه مشتركة عامة ليست خاصة بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

وقد جاء عنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنه قال له أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ القِيَامَةِ؟ فَقَالَ: «لَقَدْ ظَنَنْتُ، يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، أَنْ لاَ يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ، لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الحَدِيثِ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، خَالِصًا مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ» [أخرجه البخاري (٦٥٧٠)].

وفي حديث أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «خُيِّرْتُ بَيْنَ الشَّفَاعَةِ، وَبَيْنَ أَنْ يَدْخُلَ نِصْفُ أُمَّتِي الْجَنَّةَ، فَاخْتَرْتُ الشَّفَاعَةَ، لِأَنَّهَا أَعَمُّ وَأَكْفَى، أَتَرَوْنَهَا لِلْمُتَّقِينَ؟ لَا، وَلَكِنَّهَا لِلْمُذْنِبِينَ، الْخَطَّائِينَ الْمُتَلَوِّثِينَ» [أخرجه ابن ماجة في «سننه» (٤٣١١)]، وهكذا يقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ: اللهمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ، وَالصَّلاَةِ القَائِمَةِ آتِ مُحَمَّدًا الوَسِيلَةَ وَالفَضِيلَةَ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ، حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ» [أخرجه البخاري (٦١٤)، من حديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

وفي حديث عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

«إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ، فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ، لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ» [أخرجه مسلم (٣٨٤)].

وهكذا يقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ حِينَ يُصْبِحُ عَشْرًا وَحِينَ يُمْسِي عَشْرًا أَدْرَكَتْهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [أخرجه ابن أبي عاصم في «الصلاة على النبي» (٦١)، من حديث أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحسَّنه العلّامة الألباني].

أيّها الناس عباد الله، **وأما الشفاعة الخاصة:** فالمراد بها خاصة بنبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ؛ **وهي أنواع عدة:**

منها: شفاعته لِعَمِّه أبي طالب بتخفيف العذاب عنه. قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْلاَ أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ» [أخرجه البخاري (٣٨٨٣)، ومسلم (٢٠٩)، من حديث الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ]؛ هذه شفاعة خاصة من نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بعمِّه أبي طالب، وليست لأحد من الكافرين.

ومنها: شفاعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لأهل الجنة في دخولها كما في «صحيح مسلم»، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ، فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ» [أخرجه مسلم (١٩٧)].

وفي رواية خارج الصحيح: «فَآخُذُ بِحَلْقَةِ بَابِ الْجَنَّةِ فَأُقَعْقِعُهَا» [أخرجه الترمذي (٣١٤٨)]، فهو يشفع لأهل الجنة في دخولها.

ومن شفاعاته الخاصة عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: أنه يشفع لأقوام من أهل الجنة في رفعة درجاتهم كما في حديث أَبِي مُوسَى، قَالَ: دَعَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بِمَاءٍ فَتَوَضَّأَ بِهِ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: «اللهمَّ اغْفِرْ لِعُبَيْدٍ أَبِي عَامِرٍ» وَرَأَيْتُ بَيَاضَ إِبْطَيْهِ، فَقَالَ: «اللهمَّ اجْعَلْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ فَوْقَ كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِكَ مِنَ النَّاسِ» [أخرجه البخاري (٦٣٨٣)].

وفي دعاء الجنازة يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في حديث أُمِّ سَلَمَةَ، قَالَتْ: دَخَلَ رَسُولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَبِي سَلَمَةَ وَقَدْ شَقَّ بَصَرُهُ، فَأَغْمَضَهُ، ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ الرُّوحَ إِذَا قُبِضَ تَبِعَهُ الْبَصَرُ**»، فَضَجَّ نَاسٌ مِنْ أَهْلِهِ، فَقَالَ: «**لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ إِلَّا بِخَيْرٍ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ يُؤَمِّنُونَ عَلَى مَا تَقُولُونَ**»، ثُمَّ قَالَ: «**اللهمَّ اغْفِرْ لِأَبِي سَلَمَةَ وَارْفَعْ دَرَجَتَهُ فِي الْمَهْدِيِّينَ، وَاخْلُفْهُ فِي عَقِبِهِ فِي الْغَابِرِينَ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلَهُ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ، وَافْسَحْ لَهُ فِي قَبْرِهِ، وَنَوِّرْ لَهُ فِيهِ**» [أخرجه مسلم (٩٢٠)].

إذًا فيشفع عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لأقوام في رفعة درجاتهم، ومنهم أبو سلمة، ومنهم أبو عامر.

وهكذا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ له شفاعات خاصة، وله دعاء لمن يموت على الإسلام كما جاء في الأحاديث أن يعيذه الله عَزَّوَجَلَّ من عذاب النار ومن فتنة القبر، وأن يرفع درجته في المهديِّين ويخلفه في عقبه في الغابرين.

◈ الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، حمدًا كثيرًا طيِّبًا مباركًا فيه، كما يُحِبّ ربنا ويرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

أمّا بعد، **ومن شفاعاته الخاصة: الشفاعة العظمى**، وهي مرادنا في هذا المقام: الشفاعة لأهل الموقف، لا يشترط فيها الرضا عن المشفوع له، لأنّ أهل الموقف منهم المنافقون ومنهم الكافرون ومنهم المؤمنون الموحِّدون، فهو يشفع لأهل الموقف حتى يفصل بينهم، وهم في ذلك الكرب العظيم وفي ذلك الموقف الجسيم.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾ [الإسراء]، هذا هو المقام المحمود الذي تحمده عليه الخلائق يوم القيامة من الشفاعة العظمى، ومما يكرم به نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في عرصات القيامة.

جاء في الصحيحين من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أُتِيَ بِلَحْمٍ فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ فَنَهَشَ مِنْهَا نَهْشَةً، ثُمَّ قَالَ: «**أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَلِكَ؟ يَجْمَعُ الله النَّاسَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي وَيَنْفُذُهُمُ البَصَرُ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ، فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الغَمِّ وَالكَرْبِ مَا لاَ يُطِيقُونَ وَلاَ يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ النَّاسُ: أَلاَ تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ، أَلاَ تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: عَلَيْكُمْ بِآدَمَ، فَيَأْتُونَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ فَيَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ أَبُو البَشَرِ، خَلَقَكَ الله بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ المَلاَئِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشْفَعْ لَنَا إِلى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلى مَا نَحْنُ فِيهِ، أَلاَ تَرَى إِلى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلى نُوحٍ، فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، إِنَّكَ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلى أَهْلِ الأَرْضِ، وَقَدْ سَمَّاكَ الله عَبْدًا شَكُورًا،**

اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي عَزَّوَجَلَّ قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيمُ أَنْتَ نَبِيُّ اللهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ، فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلاَثَ كَذِبَاتٍ - فَذَكَرَهُنَّ أَبُو حَيَّانَ فِي الحَدِيثِ - نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى فَيَأْتُونَ، مُوسَى فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، فَضَّلَكَ اللهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلاَمِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، فَيَأْتُونَ عِيسَى، فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي المَهْدِ صَبِيًّا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ عِيسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ قَطُّ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْبًا، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ، فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللهِ وَخَاتِمُ الأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ، فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ العَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي عَزَّوَجَلَّ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا، لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ سَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَقُولُ: أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لاَ حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ البَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الأَبْوَابِ، ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ مَا بَيْنَ المِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الجَنَّةِ، كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَحِمْيَرَ - أو كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى -»، وفي رواية مسلم: «إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ لَكَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرٍ» [أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم: (١٩٤)].

وهؤلاء الذين ذكروا في هذا الحديث هم أولو العزم من الرسل، هم الأصل، الذين بلغوا هذه الدرجة العالية، ولهذا اختيروا من بين سائر الأنبياء، وجعلوا يتراجعون الشفاعة. وكلهم يتذكر ما هو عليه وما سيواجه به ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فانظروا عباد الله، ما أعظم هذا الموقف، وما أشَدّ هذا الموقف، يأتي النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ ليشفع للخلائق، ليخرجوا من هذا الكرب، ليخرجوا من هذا الغم، ليخرجوا من هذا الموقف إلى الحساب والجزاء وعرض الكتاب وأخذ الصحف بالأيمان والشمائل.

إذا كان هذا الموقف قبل أن يحاسبوا وقبل أن تُعرض عليهم أعمالهم، فكيف بما بعده من الأعمال؟ أفلا نخشى على أنفسنا عباد الله من شدة هذه المواقف العصيبة؟ ولهذا نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ أرشدنا إلى الأعمال والطاعات التي بها نكون ممن يشفع لهم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ في الدار الآخرة، وبَيَّن لنا أنَّ مَن مات على التوحيد فهو ممن يحظى بالشفاعة؛ ولهذا قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ، فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا، لَا يُشْرِكُونَ بِاللهِ شَيْئًا، إِلَّا شَفَّعَهُمُ اللهُ فِيهِ**» [أخرجه مسلم (٩٤٨)، من حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا]، لتعلم عظمة التوحيد وأنّ الموحِّد في خيرٍ سواء كان شافعا أو مشفوعا يوم القيامة.

وهكذا: «**مَا مِنْ مَيِّتٍ تُصَلِّي عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَبْلُغُونَ مِائَةً، كُلُّهُمْ يَشْفَعُونَ لَهُ، إِلَّا شُفِّعُوا فِيهِ**» [أخرجه مسلم (٩٤٧)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا].

هذه بعض مواقف يوم القيامة، فكيف بغيرها من المواقف؟

نسأل الله السلامة والعافية، إنّه ولي ذلك والقادر عليه، والحمد لله رب العالمين.

[١٤] الميزان يوم القيامة

◈ الخطبة الأولى:

إنّ الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾[آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١ ﴾ [الأحزاب].

أما بعد، فإنّ أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون، يقول الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم: ﴿ وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ٩ ﴾ [الأعراف].

من المشاهد العظيمة التي يشهدها العباد يوم المعاد في أرض المحشر هو نصب الموازين التي ذكرها الله عَزَّوَجَلَّ في هذه الآية: ﴿ وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ٩ ﴾ [الأعراف].

الميزان هو ما يضعه الله عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة لوزن أعمال العباد، وهو ميزان حقيقي خلافا لما تقوله المعتزلة الضلال المنحرفون، الذين يقولون بأنّ الميزان إنما المراد به العدل، بل إنه ميزان حقيقي له كفتان ولسان. وإن الله عز وجل يجعل الأعمال أعراضًا يوم القيامة، يجعلها أجساما توزن بذلك الميزان.

وقد أجمع أهل العلم أنّ الميزان يوم القيامة ميزان حسي له كفتان ولسان، نقل ذلك الإجماع الزجاج كما في «الباري» والعلامة السفاريني.

وهو ميزان حقيقي واحد توزن فيه أعمال العباد.

وأما قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ [الأعراف: ٨]، فهو باعتبار الموازين، أي الموزونات التي توضع فيه.

هذا الميزان شأنه عظيم وأمره جليل، ولهذا قال نبينا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ: «**وَالْمِيزَانُ بِيَدِ الرَّحْمَنِ**» [أخرجه ابن ماجة (١٩٩)، من حديث النَّوَّاس بْن سَمْعَان، وصححه العلامة الألباني رَحِمَهُٱللَّهُ]، والميزان بكف الرحمن وفي رواية: «**وَبِيَدِهِ الْأُخْرَى الْمِيزَانُ، يَرْفَعُ الْقِسْطَ وَيَخْفِضُ**» [أخرجها ابن ماجة (١٩٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وصححها العلامة الألباني رَحِمَهُٱللَّهُ]، على عِظَمِه - أي الميزان -.

وقد روى الإمام أحمد في «مسنده» من حديث أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بسند صحيح، قال أنس: سَأَلْتُ نَبِيَّ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، أَنْ يَشْفَعَ لِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قَالَ: قَالَ: «**أَنَا فَاعِلٌ**» قَالَ: فَأَيْنَ أَطْلُبُكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَا نَبِيَّ الله؟ قَالَ: «**اطْلُبْنِي أَوَّلَ مَا تَطْلُبُنِي عَلَى الصِّرَاطِ**» قَالَ: قُلْتُ: فَإِذَا لَمْ أَلْقَكَ عَلَى الصِّرَاطِ؟ قَالَ: «**فَأَنَا عِنْدَ الْمِيزَانِ**» قَالَ: قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أَلْقَكَ عِنْدَ الْمِيزَانِ؟ قَالَ: «**فَأَنَا عِنْدَ الْحَوْضِ، لَا أُخْطِئُ هَذِهِ الثَّلَاثَ مَوَاطِنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» [أخرجه أحمد (١٢٨٢٥)].

الميزان توزن به أعمال العباد، ولا مانع أن يوزن العبد نفسه، ولا مانع أن توزن صحائفه؛ قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ

شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة].

وأما وزن العباد فهو ممكن، فقد روى الإمام أحمد من حديث ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ كَانَ يَجْتَنِي سِوَاكًا مِنَ الْأَرَاكِ، وَكَانَ دَقِيقَ السَّاقَيْنِ، فَجَعَلَتِ الرِّيحُ تَكْفَؤُهُ، فَضَحِكَ الْقَوْمُ مِنْهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مِمَّ تَضْحَكُونَ؟» قَالُوا: يَا نَبِيَّ الله، مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ، فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ» [أخرجه أحمد (٣٩٩١)].

وفي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ العَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ القِيَامَةِ، لاَ يَزِنُ عِنْدَ الله جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، وَقَالَ: اقْرَءُوا، ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الكهف]» [أخرجه البخاري (٤٧٢٩)، ومسلم (٢٧٨٥)].

وأمّا وزن الصحائف، فحديث البطاقة، وفيه: «فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ»، قَالَ: «فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ، وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ، وَلَا يَثْقُلُ شَيْءٌ بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» [أخرجه الإمام أحمد (٦٩٩٤)، من حديث عَبْد الله بْن عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ].

إذا فأعمال العباد توزن، وصحائفهم أيضا توزن، بل وهم أنفسهم لا مانع أن يوزنوا وإن كان الأصل في الميزان هو وزن الحسنات والسيئات. قال الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنبياء].

وهكذا يقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الأعراف].

هكذا يكون العباد يوم المعاد عند هذا المشهد العظيم، توزن الحسنات والسيئات.

أيها الناس عباد الله، الميزان يوم القيامة، به تثقل الحسنات وبه تخف السيئات، فمن ثقلت موازينه فهو المفلح، ومن خفت موازينه فهو الخاسر.

وقد ذكر الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم، وهكذا نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ بعض الأعمال التي بها يثقل الميزان وبعض الأعمال التي بها يخف، ومن أعظمها تسبيح الله وتقديس الله وتعظيم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ قَالَ: «**كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ الله العَظِيمِ، سُبْحَانَ الله وَبِحَمْدِهِ**» [أخرجه البخاري (٦٤٠٦)، ومسلم (٢٦٩٤)]؛ هذه من أثقل ما يكون في الميزان، وهي من أحب ما يكون إلى الرحمن، وما أسهلها على اللسان.

وروى الإمام النسائي من حديث سَلْمَى، رَاعِي رَسُولِ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ يَقُولُ: «**بَخٍ بَخٍ، مَا أَثْقَلَهُنَّ فِي الْمِيزَانِ: لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَسُبْحَانَ الله، وَالْحَمْدُ لله، وَالله أَكْبَرُ، وَالْعَبْدُ الصَّالِحُ يُتَوَفَّى لِلْمُسْلِمِ فَيَحْتَسِبُهُ**» [أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (٩٩٢٣)، وأخرجه الإمام أحمد (١٥٦٦٢)]؛ هذه الكلمات يسيرة التي فيها تعظيم الله وتمجيد الله وتكبير الله، يقول عنهن النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**مَا أَثْقَلَهُنَّ فِي الْمِيزَانِ**».

وهكذا حمد الله عَزَّوَجَلَّ، فقد روى الإمام مسلم في «صحيحه» من حديث أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ: «**الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ وَالْحَمْدُ لله تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ الله وَالْحَمْدُ لله تَمْلَآنِ - أَوْ تَمْلَأُ - مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ،...**» الحديث [أخرجه مسلم (٢٢٣)].

ومما يرفع الميزان ويعظمه في حق المؤمن لهي الأخلاق الحسنة، فقد روى الإمام الترمذي من حديث أَبِي الدَّرْدَاءِ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ قَالَ: «**مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ، وَإِنَّ الله لَيُبْغِضُ الفَاحِشَ البَذِيءَ**» [أخرجه الترمذي (٢٠٠٢)، وصححه العلامة الألباني رَحِمَهُٱللَّهُ].

إذاً فهذه أعمال يعظم بها ميزان المؤمن ويثقل، فيكون من المفلحين بإذن الله تبارك وتعالى، فيكون ممن ثقلت موازينه، فيكون من المفلحين. وهناك أيضا أعمال أخرى، وهذه أهمها.

◈ الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، حمدًا كثيرًا طيِّبًا مباركًا فيه، كما يُحِبّ ربنا ويرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

أمّا بعد، أيها الناس أعظم ما يُثَقَّل به ميزان العبد يوم القيامة هو توحيد الله تبارك وتعالى، الذي لأجله أقيم هذا الميزان، والذي لأجله خلق هذا الإنسان، والذي لأجله وجد في السماوات والأرض.

توحيد الله تبارك وتعالى، من لقي الله عَزَّوَجَلَّ به ثقلت موازينه؛ ومن فقد توحيد الله عَزَّوَجَلَّ ذهبت موازينه وخفت، وشاهد ذلك ما تقدم من حديث عَبْد الله بْن عَمْرِو بْنِ العَاصِ، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ الله سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الخَلَائِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ البَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ اليَوْمَ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ البِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ، فَقَالَ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ**»، قَالَ: «**فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كَفَّةٍ وَالبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتِ البِطَاقَةُ، فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ الله شَيْءٌ**» [أخرجه الترمذي (٢٦٣٩)]، انظر إلى عِظَم التوحيد في ذلك اليوم تذهب كل السيئات والمخالفات.

وإن كانت سجلات مَدّ البصر، إن كان العبد من أهل التوحيد، ممن يوحد الله حق توحيده، ممن يبتعد عن الشرك به والتنديد، ممن لا يشرك به جَلَّوَعَلَا شيئا، فإنها تذهب سجلات سيئاته وتعلو كلمة «لا إله إلا الله»، فالتوحيد أعظم حسنة وأعظم طاعة يلقى الله عَزَّوَجَلَّ بها العبد، ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ في حديث القدسي: «**يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ**

ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ، وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً» [أخرجه الترمذي (٣٥٤٠)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ]، فالتوحيد شأنه عظيم.

يا أيها الناس، من أعظم ما تخف به الموازين ويخسر أصحابها أن يلقى العبد ربه عَزَّوَجَلَّ وقد أتى بناقض من نواقض الإسلام، وقد وقع في الكفر بالله جَلَّوَعَلَا، ففي حديث أبي هريرة المتقدم الذي رواه البخاري ومسلم في «صحيحيهما»، عَنْ رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **«إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ العَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ القِيَامَةِ، لاَ يَزِنُ عِنْدَ الله جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، وَقَالَ: اقْرَءُوا،** ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾ [الكهف]» [أخرجه البخاري (٤٧٢٩)، ومسلم (٢٧٨٥)]

الكفر يُذْهِب الحسنات، الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ يُحبِط الأعمال؛ قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الواقعة]؛ **«إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ العَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ القِيَامَةِ، لاَ يَزِنُ عِنْدَ الله جَنَاحَ بَعُوضَةٍ»**، لماذا؟ لأنه كان يحوي الكفر في الدنيا، كان يقع في الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾ [الكهف].

فيا أيها الناس، تذكروا وتفكروا في عظيم هذا المشهد، والأعمال توزن صغيرها وكبيرها كما تقدم في الآية: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء]، كم من الأعمال التي ربما نسيناها، وغفلنا عنها توزن يوم القيامة، ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾ بل أدنى من ذلك، والله عَزَّوَجَلَّ قادر على أن يقرر العباد بغير ميزان، ولكن هذا - كما يقول أهل العلم - لإظهار عدل الله عَزَّوَجَلَّ لجميع الخلائق، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت]؛ يبين لهم أعمالهم، يبين لهم أقوالهم، يعرضها عليهم، يضعها في الميزان لينظروا أنهم إنّما بسبب ما جَنَت أيديهم فلن يظلموا.

يا أيها الناس، بعد هذا الميزان يكون حال العباد على صنفين كما تقدم في الآيات،

وهكذا يذكر الله عَزَّوَجَلَّ لنا في كتابه الكريم في بعض السور القصيرة، قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾ [القارعة].

بعد هذا الميزان، إمّا مفلحون سعداء، وإما خاسرون بؤساء؛ فليحرص المؤمن على أن يعمل الأعمال التي بها تُثَقَّل موازينه عند الله تبارك وتعالى من توحيد الله عَزَّوَجَلَّ، ومن سائر العبادات والذكر وحسن الخلق وتقوى الله عَزَّوَجَلَّ، والقيام بما أمر والانتهاء عما نهى عنه وزجر، والإقبال عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وفَّق الله الجميع لما يحب ويرضى، والحمد لله رب العالمين.

[١٥] المرور على الصراط

◈ الخطبة الأولى:

إنّ الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾[آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١ ﴾ [الأحزاب].

أما بعد، فإنّ أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون، لازلنا معكم في تلك المشاهد التي ذكرها الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه، وذكرها نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِۦ وَسَلَّمَ، مما يمر به العباد يوم المعاد.

ومن تلك المشاهد العظيمة، التي ينطلق الناس بعدها إمّا إلى الجنة وإما إلى النار هو ما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ وذكر نبيه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، من مرور العباد على الصراط.

الصراط يا عباد الله، ذكره الله عز في كتابه الكريم، وذكر نوعين من الصراط: ذكر صراطا معنويا، وذكر صراطا حسيا.

والصراط في اللغة: هو الطريق.

وأما الصراط المستقيم، فهو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه.

الصراط المعنوي الذي ذكره الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه هو دين الإسلام؛ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال سبحانه: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة]، هذا هو الصراط المعنوي.

وأما الصراط الحسي: فهو الجسر الممدود على جهنم، الذي يمر عليه المؤمنون حتى يصلوا إلى الجنة، هذا هو الصراط الحسي، وجاء في بعضها الجسر الممدود على متن جهنم. وذكر «الممدود على متن» لا تصح فيه أحاديث.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: مَن ثَبَت على الصراط المعنوي في الدنيا - أي الإسلام - ، ثبت على الصراط الحسي في الدار الآخرة؛ ومَن لم يثبت على هذا الصراط، فلن يثبت على ذلك الصراط.

وقد ذكر الله عَزَّوَجَلَّ الصراط الحسي في كتابه الكريم، عند جماعة من أهل العلم على تفسير الآية بذلك في قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۝٧٢﴾ [مريم]؛ فقد فَسَّر كثير من أهل العلم منهم عبد الله بن مسعود وقتادة بن دعامة وزيد بن أسلم وجماعة من السلف: أنّ المراد بالورود في هذه الآية هو المرور على الصراط، ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١﴾ [مريم].

ولقد ثبت في الأحاديث الصحاح في وصف ذلك الصراط أدلة ومنها ما جاء في صحيح الإمام مسلم من حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنَّهُ قَالَ: «**بَلَغَنِي أَنَّ الْجِسْرَ أَدَقُّ مِنَ الشَّعْرَةِ، وَأَحَدُّ مِنَ السَّيْفِ**» [أخرجه مسلم (١٨٣)، جاء عن أبي سعيد في «صحيح الإمام مسلم» بلاغا، ورواه الآجري والحاكم عن سلمان موقوفًا، ورواه ابن أبي شيبة وغيره عن ابن مسعود موقوفًا، وَصَحَّحه الألباني].

هذا الصراط «**أَدَقُّ مِنَ الشَّعْرَةِ، وَأَحَدُّ مِنَ السَّيْفِ**»، ولهذا الوصف الذي أجمع عليه

أهل العلم، لم تقبله قلوب أو عقول أهل البدع، فأنكرته بعض المعتزلة، وقالوا: هذا ليس بصحيح، وما جاء في الأدلة فمجاز.

وقال آخرون: بل هو ثابت، لكن ليس أدَقّ من الشعرة ولا أحَدّ من السيف؛ لأنهم يعرضون الأدلة على عقولهم فما قبلتها عقولهم قبلوها وما رفضتها عقولهم رفضوها.

وأمّا أهل الإيمان فمدار إيمانهم على التسليم والقبول، لما جاء في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وفي سنة رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ.

جاء من حديث أبي هريرة في «الصحيحين»: قُلْنَا: يَا رَسُولَ الله، وَمَا الجَسْرُ؟ قَالَ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ: «**مَدْحَضَةٌ مَزِلَّةٌ، عَلَيْهِ خَطَاطِيفُ وَكَلَالِيبُ، وَحَسَكَةٌ مُفَلْطَحَةٌ لَهَا شَوْكَةٌ عُقَيْفَاءُ، تَكُونُ بِنَجْدٍ، يُقَالُ لَهَا: السَّعْدَانُ**» [أخرجه البخاري (٧٤٣٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ومسلم (١٨٣) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ]، وشوك السعدان قد أخبر النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ أنها تكون ببلاد نجد يعرفها من ذهب إلى تلك البلاد.

هكذا وصف الصراط: «**مَدْحَضَةٌ مَزِلَّةٌ، عَلَيْهِ خَطَاطِيفُ وَكَلَالِيبُ، وَحَسَكَةٌ مُفَلْطَحَةٌ لَهَا شَوْكَةٌ عُقَيْفَاءُ، تَكُونُ بِنَجْدٍ، يُقَالُ لَهَا: السَّعْدَانُ**»، فيا أيها الناس تصوروا هذا الصراط يمر عليه الخلائق أجمعون، بحسب أعمالهم يمرون على هذا الصراط الذي هو أدَقّ من الشعرة وأحَدّ من السيف وعلى جنبتيه حسك وشوك كشوك السعدان، والناس يمرون عليه وهو مدحضة مَزِلَّةٌ فالمُسلَّم مَن سلمه الله عَزَّوَجَلَّ.

ولهذا يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُٱللَّهُ في «لاميَّته»:

وَكَذَا الصِّـــراطُ يُمَـدُّ فَـوْقَ جَهَـنَّمٍ ... فَمُسَـلَّمٌ نَـــاجٍ وَآخَـــرَ مُهْمَـــلُ

أما مرور الناس على الصراط، فقد ثبت في الصحيحين عن أبي سعيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «**ثُمَّ يُضْرَبُ الْجِسْرُ عَلَى جَهَنَّمَ، وَتَحِلُّ الشَّفَاعَةُ، وَيَقُولُونَ: اللهمَّ سَلِّمْ، سَلِّمْ**» قِيلَ: يَا رَسُولَ الله، وَمَا الْجِسْرُ؟ قَالَ: «**دَحْضٌ مَزِلَّةٌ، فِيهِ خَطَاطِيفُ وَكَلَالِيبُ وَحَسَكٌ تَكُونُ بِنَجْدٍ فِيهَا شُوَيْكَةٌ يُقَالُ لَهَا السَّعْدَانُ، فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ كَطَرْفِ الْعَيْنِ، وَكَالْبَرْقِ، وَكَالرِّيحِ،**

وَكَالطَّيْرِ، وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ...» الحديث [أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣)]؛

كل هذا المرور على حسب أعمالهم، وانظر إلى أول الحديث: **«فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ»**، ومعناه أنّ الكافرين لا يمرون على الصراط، بل يَخِرّون جثيّا في نار جهنم.

وإنّما أهل الإيمان يمرون على حسب أعمالهم، أي في سرعتهم، **«فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ كَطَرْفِ الْعَيْنِ، وَكَالْبَرْقِ، وَكَالرِّيحِ، وَكَالطَّيْرِ، وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ»**.

وجاء من حديث حذيفة وأبي هريرة في «صحيح مسلم» أيضا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال: **«فَيَمُرُّ أَوَّلُكُمْ كَالْبَرْقِ»** قَالَ: قُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي أَيُّ شَيْءٍ كَمَرِّ الْبَرْقِ؟ قَالَ: **«أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْبَرْقِ كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ؟ ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ، ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ، وَشَدِّ الرِّجَالِ، تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ»** [أخرجه مسلم (١٩٥)]، **«تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ»** أي الذين يمرون على الصراط تجري بهم أعمالهم، فمسلم ناج ومكردس في نار جهنم، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: **«حَتَّى تَعْجِزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ، حَتَّى يَجِيءَ الرَّجُلُ فَلَا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلَّا زَحْفًا»** [أخرجه مسلم (١٩٥)].

كلّ ذلك على حسب الأعمال، فَمَن الذي يضمَن لنفسه أن لا يسقط مِن على ذلك الصراط الذي هو مدحضة مزلة، تحته نار جهنم، ممدود على نار جهنم، يوصل الناجين إلى الجنة؟

أوّل من يمر على هذا الصراط وينجو نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، ومن شاء الله عَزَّوَجَلَّ من هذه الأمّة، فقد جاء في الصحيح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في حديث أبي هريرة وغيره، أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال: **«فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُ، وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ، وَدَعْوَى الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللهمَّ سَلِّمْ، سَلِّمْ»** [أخرجه مسلم (١٨٢)]، فنبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أول من يمر على الصراط، وهكذا من شاء الله من أهل الإيمان من هذه الأمة إكراما من الله عَزَّوَجَلَّ لها، فهم أوّل من يمرون على الصراط.

وقد جاء في حديث الشفاعة أنّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال: **«وَنَبِيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَى**

الصِّرَاطِ يَقُولُ: رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ» [أخرجه مسلم (١٩٥)، من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]، لازال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ حتى في ذلك الموطن وهو يدعو لأمّته بالنجاة وبالسلامة عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

أيها الناس عباد الله، وقتُ الصراط حين تُبَدّل الأرض غير الأرض والسماوات، فقد جاء في صحيح الإمام مسلم من حديث عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قَالَتْ: سَأَلْتُ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عَنْ قَوْلِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨] فَأَيْنَ يَكُونُ النَّاسُ يَوْمَئِذٍ؟ يَا رَسُولَ الله فَقَالَ: «**عَلَى الصِّرَاطِ**» [أخرجه مسلم (٢٧٩١)].

وفي صحيح مسلم من حديث ثوبان سئل النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: أَين يَكُونُ النَّاسُ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**هُمْ فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الْجِسْرِ**» [أخرجه مسلم (٣١٥)].

عند أن تُبَدّل هذه السماوات، وتبدّل هذه الأراضين في ذلك الوقت، المؤمنون يمرون على الصراط إلى الجنة في ذلك المشهد عند أن تتغير السماوات والأرض.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**هُمْ فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الْجِسْرِ**»؛ وهناك من يحبس على الصراط بسبب أعماله التي وقع فيها، فقد روى الإمام أبو داود من حديث سَهْلِ بْنِ مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ الْجُهَنِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «**مَنْ حَمَى مُؤْمِنًا مِنْ مُنَافِقٍ، أُرَاهُ قَالَ: بَعَثَ الله مَلَكًا يَحْمِي لَحْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، وَمَنْ رَمَى مُسْلِمًا بِشَيْءٍ يُرِيدُ شَيْنَهُ بِهِ، حَبَسَهُ الله عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ حَتَّى يَخْرُجَ مِمَّا قَالَ**» [أخرجه أبو داود (٤٨٨٣)، وحسّنه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ]،

◈ الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، حمدًا كثيرًا طيِّبًا مباركًا فيه، كما يُحِبّ ربنا ويرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

أمّا بعد، فيا أيها الناس، الموت يُذبَح على الصراط، جاء في «صحيح مسلم» عن أبي سعيد وآخرين أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «**يُجَاءُ بِالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» [أخرجه مسلم (٢٨٤٩)]، وفي رواية ابن ماجة: «**يُؤْتَى بِالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُوقَفُ عَلَى الصِّرَاطِ**» [أخرجها ابن ماجة (٤٣٢٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححها الألباني].

قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا المَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: وهَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا المَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، فَيُذْبَحُ ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾ [مريم: ٣٩]، وَهَؤُلاَءِ فِي غَفْلَةِ أَهْلُ الدُّنْيَا ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٩﴾ [مريم]**» الحديث [أخرجه البخاري (٤٧٣٠)، من حديث أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

وفي رواية ابن ماجة: «**فَيُقَالُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ قَالُوا: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، قَالَ: فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيُذْبَحُ عَلَى الصِّرَاطِ، ثُمَّ يُقَالُ لِلْفَرِيقَيْنِ كِلَاهُمَا: خُلُودٌ فِيمَا تَجِدُونَ، لَا مَوْتَ فِيهَا أَبَدًا**» [أخرجها ابن ماجة (٤٣٢٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححها الألباني].

يا أيها الناس، الناسُ على الصراط، كما جاء عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم؛ فإذا مَرُّوا على ذلك الصراط، ونَجَّى الله عَزَّوَجَلَّ من نَجَّى منهم يوقفون على قنطرة بين الجنة والنار؛ كما في «صحيح الإمام البخاري» من حديث أبي سَعِيدٍ الخُدْرِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ**

الجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَأَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا» [أخرجه البخاري (٦٥٣٥)].

قال أهل العلم: هذا القصاص بعد الحساب الذي تقدم، إنّما هو لما يبقى في النفوس، فقد يأخذ العبد مظلمته في عرصات القيامة، ولكن ربما يبقى في قلبه شيء على أخيه، فيذهب ذلك كله على تلك القنطرة.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**فَيُقَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَأَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا**».

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦﴾ [محمد]؛ قال: يعرفون منازلهم كما أنهم يخرجون من صلاة الجمعة، يتفرقون إلى منازلهم وقد عرفوها. وهكذا بعد تلك القنطرة، «**فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَأَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا**».

تلك القنطرة، قال بعض أهل العلم: هي من تتمة الصراط؛ وقال بعضهم: بل هي صراط جديد؛ وليس في الكتاب والسنة بيان عنها أَهِيَ صراط جديد أم هي من تتمة الصراط.

وإنما الذي يعنينا - قال بعض أهل العلم: - أن نؤمن بما أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بما يحصل للعباد عليها وهو القصاص، لما في النفوس والقلوب، فيحصل التهذيب وتحصل التنقية لأهل الجنة، فيدخلون الجنة وهم على قلب رجل واحد.

يا أيها الناس ما أعظم هذه المواقف! وما أشدّ هذه المواقف! مَن الذي يضمن لنفسه أن ينجو من على هذا الصراط، وأن يمر عليه سالما، وأن يصل إلى القنطرة، وأن يقال له:

«يَا أَهْلَ الجَنَّةِ خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ»؟

فالله الله عباد الله، بالتزود ليوم المعاد، وبالإقبال على الله جَلَّوَعَلَا ظاهرًا وباطنًا.

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ بمَنِّه وكَرَمِه وجُودِه وإحْسَانِه أن ينجينا وإيّاكم من تلك الكرب، وأن يسلمنا من ذلك السقوط، إنّه على كل شيء قدير.

والحمد لله رب العالمين.

[١٦] الحساب يوم القيامة

◈ الخطبة الأولى:

إنّ الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾[آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١ ﴾ [الأحزاب].

أما بعد، فإنّ أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون عباد الله، يقول الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم: ﴿ يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٦ ﴾ [المجادلة].

من المواقف العظيمة التي يمر بها العباد في يوم المعاد لهو الحساب الذي أشير إليه في هذه الآية: ﴿ يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٦ ﴾ [المجادلة].

والحساب كما يقول أهل العلم: هو إطلاع الله عَزَّوَجَلَّ عباده على أعمالهم يوم القيامة، وقد يكون يسيرا وقد يكون عسيرا.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾ [الغاشية].

وعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي بَعْضِ صَلَاتِهِ: «**اللهمَّ حَاسِبْنِي حِسَابًا يَسِيرًا**» فَلَمَّا انْصَرَفَ، قُلْتُ: يَا نَبِيَّ الله، مَا الْحِسَابُ الْيَسِيرُ؟ قَالَ: «**أَنْ يَنْظُرَ فِي كِتَابِهِ فَيَتَجَاوَزَ عَنْهُ، إِنَّهُ مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَوْمَئِذٍ يَا عَائِشَةُ هَلَكَ، وَكُلُّ مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ، يُكَفِّرُ الله عَزَّوَجَلَّ بِهِ عَنْهُ، حَتَّى الشَّوْكَةُ تَشُوكُهُ**» [أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٤٢١٥)، بسند صحّحه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ].

وأصل الحديث في البخاري ومسلم عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ حُوسِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، عُذِّبَ**» - وفي رواية: «**هَلَكَ**» -؛ فَقُلْتُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾ [الانشقاق]؟ فَقَالَ: «**لَيْسَ ذَاكِ الْحِسَابُ، إِنَّمَا ذَاكِ الْعَرْضُ، مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ**» - وفي رواية: «**هَلَكَ**» -؛ [أخرجه البخاري (١٠٣) ومسلم (٢٨٧٦)].

يا أيها الناس، الحساب يوم القيامة قد يكون يسيرا وقد يكون عسيرا، وإذا كان يسيرا فهو عظيم لا يتخيله العبد ولا يَقْوى عليه. فحساب أهل الإيمان عرض لأعمالهم فيما بينهم وبين الله عَزَّوَجَلَّ؛ روى البخاري ومسلم في «صحيحيهما» عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**إِنَّ الله يُدْنِي الْمُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا، أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الكَافِرُ وَالْمُنَافِقُونَ، فَيَقُولُ الأَشْهَادُ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٨﴾ [هود]**»؛ [أخرجه البخاري (٢٤٤١) ومسلم (٢٧٦٨)]. فحسابهم عسير كما أخبر الله جَلَّ وَعَلَا في كتابه الكريم.

يا أيها الناس، أوّل من يحاسب من العباد هذه الأمة، إكراما من الله عَزَّوَجَلَّ لها وتقديما لها وبيانا لفضلها؛ روى مسلم في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَعَنْ حُذَيْفَةَ، قَالَا: قَالَ

رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «...**نَحْنُ الْآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَالْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الْمَقْضِيُّ لَهُمْ قَبْلَ الْخَلَائِقِ**» - وَفِي رِوَايَةٍ: «**الْمَقْضِيُّ بَيْنَهُمْ**» - [أخرجه مسلم (٨٥٦)].

وروى الإمام ابن ماجة عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «**نَحْنُ آخِرُ الْأُمَمِ، وَأَوَّلُ مَنْ يُحَاسَبُ، يُقَالُ: أَيْنَ الْأُمَّةُ الْأُمِّيَّةُ، وَنَبِيُّهَا؟ فَنَحْنُ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ**» [أخرجه ابن ماجة في «سننه» (٤٢٩٠)، بسند صحّحه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ].

الحساب لا ينجو منه أحد، ولا يغادر أحدا، الحساب عام لجميع الأمم، ولا يستثنى منه إلا من استثناه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وهم سبعون ألفا من هذه الأمة مع كل ألف سبعون ألفا. ففي حديث عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما الذي رواه الشيخان حين عُرِضَت الأمم على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ؛ وفي أثناء ذلك الحديث قال: «**وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْأُفُقِ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: انْظُرْ إِلَى الْأُفُقِ الْآخَرِ، فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ**» [أخرجه البخاري (٥٧٠٥) ومسلم (٢٢٠)].

وجاء خارج الصحيح عن أبي أمامة وأبي هريرة وآخرين: «**مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا**» [أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣١٧٣٩، ٣١٧١٤)، وغيره].

فخاض الناس فيهم واختلفوا في من هو المراد بهؤلاء؟ فَبَلَغَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فَخَرَجَ، فَقَالَ: «**هُمُ الَّذِينَ لاَ يَسْتَرْقُونَ، وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ، وَلاَ يَكْتَوُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**» فَقَالَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ: أَمِنْهُمْ أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**»؛ [أخرجه البخاري (٥٧٠٥)، من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا]. وفي رواية قَالَ: «**اللهمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ**» [أخرجه البخاري (٥٨١١) ومسلم (٢١٦)، من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

سبعون ألفا من هذه الأمة ينجيهم الله عَزَّوَجَلَّ من الحساب، فيدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب.

يا أيها الناس، يحاسب العبد على أعماله وعلى ما كان عنده من المظالم فيما بينه وبين المخلوقين، ويحاسب على ما عنده من الذنوب والسيئات فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى.

وأول ما يحاسب عليه العبد فيما بينه وبين الله الصلاة، كما في الحديث عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الرَّجُلُ صَلَاتُهُ، فَإِنْ صَلُحَتْ صَلُحَ سَائِرُ عَمَلِهِ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَسَدَ سَائِرُ عَمَلِهِ**» [أخرجه ابن أبي الدنيا في «الأهوال» (١٩٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والطبراني في «المعجم الأوسط» (١٨٥٩) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]؛ إذا صلحت الصلاة وكان العبد يؤديها في أوقاتها بشروطها وواجباتها مخلصا لربه فيها، صلحت فصلح سائر العمل، وإن فسدت الصلاة فسد سائر العمل. من الناس من يفشل عند أوّل الحساب، فكم الذين يضيعون الصلوات ويتلاعبون بها ويفرطون في تعلمها وفي أدائها كما أمر الله تبارك وتعالى.

وأما فيما بين العباد أنفسهم، فإنّ أول ما يحاسب عليه العبد الدماء، روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن عبد الله ابن مسعود قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الدِّمَاءِ**» [أخرجه البخاري (٦٨٦٤) ومسلم (١٦٧٨)]؛ أي في الدماء التي ارتكبها العباد بغير حِلّ ولا دليل ولا برهان، أوّل أمر يحاسبون عليه الدماء.

ولهذا فقد جاء في الأحاديث الأخرى عن ابن مسعود وابن عباس وجرير وآخرين: عَنْ رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**يَجِيءُ الْمَقْتُولُ آخِذًا قَاتِلَهُ، وَأَوْدَاجُهُ تَشْخَبُ دَمًا عِنْدَ ذِي الْعِزَّةِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ سَلْ هَذَا فِيمَ قَتَلَنِي؟ فَيَقُولُ: فِيمَ قَتَلْتَهُ؟ قَالَ: قَتَلْتُهُ لِتَكُونَ الْعِزَّةُ لِفُلَانٍ. قِيلَ: هِيَ لله**» [وبهذا اللفظ أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٧٦٦) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]؛ وفي رواية: «**فَيَقُولُ: قَتَلْتُهُ لِتَكُونَ الْعِزَّةُ لِفُلَانٍ، فَيَقُولُ: إِنَّهَا لَيْسَتْ لَهُ، بُؤْ بِذَنْبِهِ**» [أخرجها الطبراني في «المعجم الكبير» (١٠٠٧٥) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]؛ فيبوء بإثمه وإثمه.

وهكذا سائر المظالم؛ روى البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «**لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ، مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ**» [أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (١٨٣)، ومسلم في «صحيحه»

(٢٥٨٢)]، سبحان الله! ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت]، الشاة التي لا قرون لها إذا نطحتها الشاة القرناء فإنه يقتص لها يوم القيامة، مع أنّ البهائم ليست مكلفة، فكيف بالعباد في مظالمهم فيما بينهم؟

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، لا تذهب صغيرة ولا كبيرة، ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء].

◈ الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، حمدًا كثيرًا طيِّبًا مباركًا فيه، كما يُحِبّ ربنا ويرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

أمّا بعد، روى الإمام أحمد من حديث عَبْد الله بْن أُنَيْسٍ رضي الله تعالى عنه أنّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «**يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - أو قَالَ: الْعِبَادُ - عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا**» قَالَ: قُلْنَا: وَمَا بُهْمًا؟ قَالَ: «**لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مِنْ بُعْدٍ كَمَا يَسْمَعُهُ مِنْ قُرْبٍ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الدَّيَّانُ، وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ، وَلَهُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَقٌّ، حَتَّى أَقُصَّهُ مِنْهُ، وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ، وَلِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ عِنْدَهُ حَقٌّ، حَتَّى أَقُصَّهُ مِنْهُ، حَتَّى اللَّطْمَةُ**» قَالَ: قُلْنَا: كَيْفَ وَإِنَّا إِنَّمَا نَأْتِي الله عَزَّوَجَلَّ عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا؟ قَالَ: «**بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ**» [أخرجه أحمد في «مسنده» (١٦٠٤٢)]؛ إنّها الحسنات والسيئات.

وفي صحيح الإمام مسلم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «**أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟**» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: «**إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ**» [أخرجه مسلم (٢٥٨١)]. حساب شديد، لا يظلم أحد عند الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت].

وفي «صحيح البخاري» من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أو شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلله مِنْهُ الْيَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لاَ يَكُونَ دِينَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ**

تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ» [أخرجه البخاري (٢٤٤٩)].

يا أيها الناس، لو قرأنا ما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه، وما ذكر نبينا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، لرأينا ما تشيب لهوله الرؤوس من شدة ما يلاقيه العباد بين يدي الله من الحساب والعذاب والنعيم والثواب والعقاب عند الله تبارك وتعالى.

ولهذا كان الواجب على العبد أن يبادر إلى محاسبة نفسه في الحياة الدنيا، روى الإمام الترمذي من حديث عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنّه قال: «**حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَتَزَيَّنُوا لِلْعَرْضِ الأَكْبَرِ، وَإِنَّمَا يَخِفُّ الحِسَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ**» [أخرجه الترمذي في «سننه» (٢٤٥٩)، وأخرجه غيره].

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٦ ﴾ [المجادلة]، كل صغير وكبير يُعرَض على العباد، أهل الإيمان تعرض عليهم أعمالهم، فإن رجحت كفة الحسنات ساروا إلى دار الجنان والخلد، وإن كان عندهم من الكبائر وشاء الله أن يُعذِّبهم وأن يمحصهم فعل.

وأما الكافرون فإنما تعرض عليهم الأعمال عرضًا لتزداد حسرتهم وتعظم خيبتهم ويشتد ندمهم عند الله عَزَّوَجَلَّ على ما فرطوا في هذه الحياة الدنيا.

فالبدار عباد الله، والإقبال على الله عَزَّوَجَلَّ، ومحاسبة النفس محاسبة الشريك الشحيح الذي لا يريد أن يُغلَب ولا أن يقهر ولا أن يخسر، حاسب نفسك، انظر في أعمالك، انظر في أقوالك، انظر في معتقداتك، كيف ستقف بين يدي الله هذه المواقف العظيمة؟ نسأل الله عَزَّوَجَلَّ التوفيق والسداد والهداية إلى سبيل الرشاد، إنّه على كل شيء قدير، والحمد لله رب العالمين.

[١٧] القصاص يوم القيامة

◈ الخطبة الأولى:

إنّ الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾[آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١ ﴾ [الأحزاب].

أما بعد، فإنّ أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون، لازلنا معكم في ذكر مشاهد العرصات وما يمر به العباد يوم المعاد بين يدي الله تبارك وتعالى. وما أكثر تلك المواقف التي ذكرها الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه وذكرها نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ في سنته الصحيحة تذكيرًا للعباد وتخويفًا لهم، ولهذا يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٨١ ﴾ [البقرة].

ومن تلك المشاهد العظيمة: ما يحصل بين العباد يوم المعاد من القصاص وأخذ المظالم التي كانت بينهم في الدنيا، قال الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم: ﴿ وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ

لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ [الأنبياء]، وفي هذا تسلية لكل مظلوم، الذي أخذ مِن ماله أو عرضه أو دمه أو ما يمتلكه، فإنّ الله عَزَّوَجَلَّ يقتص له يوم القيامة ممن تعدى عليه وظلمه، ولهذا يقول نبينا صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، كما في «صحيح مسلم» من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ، قَالَ: «**لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ، مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ**» [أخرجه مسلم (٢٥٨٢)]؛ الشاة التي لا قرون لها إذا نطحت من الشاة التي عندها قرون فإنّه يُقتَص لها يوم القيامة، فكيف بالعباد والبشر الذين أمروا ونُهوا.

جاء في هذا الحديث في رواية حسنها العلامة الألباني أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ قال: «**يقتص الخلق بعضهم من بعض حتى الجماء من القرناء وحتى الذرة من الذرة**» [وانظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٤/ ١١٦) للألباني رَحِمَهُٱللَّهُ]؛ يُقْتَصُّ حتى للذرة من الذرة، فكيف ببني آدم؟

ولهذا حذَّرنا نبينا صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ من أن نتغافل عن المظالم في هذه الدنيا، فنُغادر الحياة وعندنا التبعات، ونتحمل المظالم العظيمة. روى الإمام البخاري في «صحيحه» من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ: «**مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أو شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلله مِنْهُ اليَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لاَ يَكُونَ دِينَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ**» [أخرجه البخاري (٢٤٤٩)].

وفي صحيح الإمام مسلم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ، قَالَ: «**أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟**» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: «**إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ**»

[أخرجه مسلم (٢٥٨١)].

فانظر يا عبد الله، انظر لنفسك ما يكون سببا لنجاتك، واحذر أن تكون عندك المظالم الظاهرة أو الباطنة لأهل الإيمان أو على أهل الإيمان، فإنّك ستلقى الله عَزَّوَجَلَّ في يوم يقتص فيه للذرة من الذرة.

جاء أيضا عند الامام أحمد بسند صحيح من حديث عَبْد الله بْن أُنَيْسٍ رضي الله تعالى عنه أنّ النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ قال: «**يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - أو قَالَ: الْعِبَادُ - عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا**» قَالَ: قُلْنَا: وَمَا بُهْمًا؟ قَالَ: «**لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مِنْ بُعْدٍ كَمَا يَسْمَعُهُ مِنْ قُرْبٍ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الدَّيَّانُ، وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ، وَلَهُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَقٌّ، حَتَّى أَقُصَّهُ مِنْهُ، وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ، وَلِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ عِنْدَهُ حَقٌّ، حَتَّى أَقُصَّهُ مِنْهُ، حَتَّى اللَّطْمَةُ**» قَالَ: قُلْنَا: كَيْفَ وَإِنَّا إِنَّمَا نَأْتِي الله عَزَّوَجَلَّ عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا؟ قَالَ: «**بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ**» [أخرجه أحمد في «مسنده» (١٦٠٤٢)]؛ حتى اللطمة! فكيف بالمال؟ بالعرض؟ فكيف بالدم؟ فكيف بالممتلكات الكثيرة؟ فكيف بالدَّيْنِ؟ إذا كانت اللطمة يُقْتَصّ لصاحبها!

وهكذا روى الإمام ابن ماجة بسند حَسَّنه العلامة الألباني عَنْ جَابِرِبن عبدالله رضي الله تعالى عنه وأرضاه، قَالَ: لَمَّا رَجَعَتْ إلى رَسُولِ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ مُهَاجِرَةُ الْبَحْرِ، قَالَ: «**أَلَا تُحَدِّثُونِي بِأَعَاجِيبِ مَا رَأَيْتُمْ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ؟**» قَالَ فِتْيَةٌ مِنْهُمْ: بَلَى، يَا رَسُولَ الله بَيْنَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَرَّتْ بِنَا عَجُوزٌ مِنْ عَجَائِزِ رَهَابِينِهِمْ، تَحْمِلُ عَلَى رَأْسِهَا قُلَّةً مِنْ مَاءٍ، فَمَرَّتْ بِفَتًى مِنْهُمْ، فَجَعَلَ إِحْدَى يَدَيْهِ بَيْنَ كَتِفَيْهَا، ثُمَّ دَفَعَهَا فَخَرَّتْ عَلَى رُكْبَتَيْهَا، فَانْكَسَرَتْ قُلَّتُهَا، فَلَمَّا ارْتَفَعَتِ الْتَفَتَتْ إِلَيْهِ، فَقَالَتْ: سَوْفَ تَعْلَمُ يَا غُدَرُ إِذَا وَضَعَ الله الْكُرْسِيَّ، وَجَمَعَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَتَكَلَّمَتِ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلُ، بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ، فَسَوْفَ تَعْلَمُ كَيْفَ أَمْرِي وَأَمْرُكَ عِنْدَهُ غَدًا، قَالَ: يَقُولُ رَسُولُ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ: «**صَدَقَتْ، صَدَقَتْ كَيْفَ يُقَدِّسُ الله أُمَّةً لَا يُؤْخَذُ لِضَعِيفِهِمْ مِنْ شَدِيدِهِمْ؟**» [أخرجه ابن ماجة (٤٠١٠)].

إنّه يوم عظيم، تتكلم فيه الأيدي والأرجل، ويقف العباد فيه بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ،

فيُقتَصُّ لأصحاب المظالم صغيرها وكبيرها.

◈ الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، حمدًا كثيرًا طيِّبًا مباركًا فيه، كما يُحِبّ ربنا ويرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

أمّا بعد، يا أيها الناس المظالم كثيرة، ولهذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في الأحاديث الماضية: «**وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا،...**» [أخرجه مسلم (٢٥٨١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]، وفي الحديث الآخر: «**مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أو شَيْءٍ،...**» [أخرجه البخاري (٢٤٤٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

إذًا فهي أنواع عديدة، لكن من أعظم المظالم التي يقتص الله عَزَّوَجَلَّ لأصحابها يوم القيامة من أهلها هي الدماء، ولهذا يقول علي بن أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما في «الصحيح»، قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أَنَا أَوَّلُ مَنْ يَجْثُو بَيْنَ يَدَيِ الرَّحْمَنِ لِلْخُصُومَةِ يَوْمَ القِيَامَةِ**» [أخرجه البخاري (٣٩٦٥)].

قيل المراد: كما جاء في حديث أبي ذر: إِنَّ ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩] «**إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي الَّذِينَ بَرَزُوا يَوْمَ بَدْرٍ، حَمْزَةُ، وَعَلِيٌّ، وَعُبَيْدَةُ بْنُ الْحَارِثِ، وَعُتْبَةُ، وَشَيْبَةُ ابْنَا رَبِيعَةَ، وَالْوَلِيدُ بْنُ عُتْبَةَ**»؛ [أخرجه مسلم (٣٠٣٣)]، أي بما حصل من المبارزة بين عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وبين الكافرين يوم بدر، ثم أنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩].

وفي «الصحيح» من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الدِّمَاءِ**» [أخرجه مسلم (١٦٧٨)]، فالذي يخوض في دماء أهل الإيمان بغير حق كيف يكون حاله بين يدي الله تبارك وتعالى؟

جاء عند الإمام النسائي من حديث ابن مسعود، وجاء نحوه من حديث جرير وابن عباس وآخرين أنّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**يَجِيءُ الرَّجُلُ آخِذًا بِيَدِ الرَّجُلِ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، هَذَا قَتَلَنِي، فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: لِمَ قَتَلْتَهُ؟ فَيَقُولُ: قَتَلْتُهُ لِتَكُونَ الْعِزَّةُ لَكَ، فَيَقُولُ: فَإِنَّهَا لِي. وَيَجِيءُ الرَّجُلُ آخِذًا بِيَدِ الرَّجُلِ فَيَقُولُ: إِنَّ هَذَا قَتَلَنِي، فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: لِمَ قَتَلْتَهُ؟ فَيَقُولُ: لِتَكُونَ الْعِزَّةُ لِفُلَانٍ، فَيَقُولُ: إِنَّهَا لَيْسَتْ لِفُلَانٍ؛ فَيَبُوءُ بِإِثْمِهِ**» [أخرجه النسائي (٣٩٩٧)، من حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ].

يا معاشر المؤمنين، فإنّ من الناس من يسفك الدماء لأجل المناصب، لأجل الدنيا، لأجل الأشخاص، لا لأجل دين الله عَزَّوَجَلَّ، فيتذكر هذا الموقف: «**لِتَكُونَ الْعِزَّةُ لِفُلَانٍ**»؛ فيقول الله عَزَّوَجَلَّ: «**إِنَّهَا لَيْسَتْ لِفُلَانٍ؛ فَيَبُوءُ بِإِثْمِهِ**».

أمّا ابن عباس فإنه ذكر قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء].

هذه من الحقوق العظيمة، أن تُسْفَك الدماء بغير حق ولا برهان من السنة والقرآن، ربما لأجل مال أو أرض أو سياسة أو مناصب أو دنيا أو عصبية أو غير ذلك من الأمور المقيتة المحرمة؛ فليستعد أصحاب هذه المظالم يوم القيامة بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ لهذا الموقف العصيب.

ومن تلك المظالم التي ذكرت عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم أخذ الممتلكات، أخذ الأموال من أصحابها، أخذ الأراضي والعقارات؛ روى البخاري ومسلم في «صحيحيهما» من حديث عائشة وسعيد بن زيد وآخرين أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَنْ ظَلَمَ قِيدَ شِبْرٍ مِنَ الأَرْضِ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ**» [أخرجه البخاري (٢٤٥٣)، ومسلم (١٦١٢)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا]. الذي يأخذ مقدار شبر! فكيف بمن يأخذ الأراضي والفدانات والكيلوهات ظلمًا وعدوانًا؟ ربما يكون صاحب هذه الأرض ليس

له مال إلا تلك الأرضية؛ فيأتي ذلك المجرم، إما أن يكون مسؤولا أو صاحب جاه أو مال أو عصابة أو كذب وفجور وتزوير، فيأخذ ذلك المال أو تلك الأرض من ذلك المسكين، فانظر ما هي عقوبته: «**مَنْ ظَلَمَ قِيدَ شِبْرٍ مِنَ الأَرْضِ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ**».

قال أهل العلم: يُجعَل على رقبته من تراب تلك السبع الأرَضين مقدار ذلك القيد. فكيف إذا كانت أوسع من ذلك، وأكثر من ذلك، وأعظم من ذلك؟ كيف تكون عقوبته؟

وفي رواية: أنه يجلجل في سبع أرَضين، أي يُخْسَف به، لأنّه قَدَّم هذا التراب وهذه الدنيا، وأخذها ظلما وعدوانا، ولم يقف عند حدود الله تبارك وتعالى، فيعاقب بهذه العقوبة.

ألَا فاتقوا الله عباد الله، وراقبوا الله في أقوالكم، وفي أفعالكم، وفي كل ما تأتون وتَذَرُون، فإنّ الحساب شديد والموقف عظيم، ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٨١﴾ [البقرة]، فتحلل من المظالم قبل لقاء الله عَزَّوَجَلَّ، إنك إن فررت من العباد، وغالطت كثيرًا منهم فلم يعلموا أنّك ظالم، ستلقى الله عَزَّوَجَلَّ، وينكشف الغطاء، ويبرز ما في الضمائر، ﴿يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ ١٨﴾ [الحاقة]، فلنرجع إلى الله، ولنعد إليه، ولنرجع المظالم إلى أهلها حتى نسلم من هذا العذاب الأليم.

بارك الله فيكم، والحمد لله رب العالمين.

[١٨] أسئلة يوم القيامة (١)

◈ الخطبة الأولى:

إنّ الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾[آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١ ﴾ [الأحزاب].

أما بعد، فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون عباد الله، يقول الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ٤٤ ﴾ [الزخرف].

من مشاهد يوم القيامة سؤال الله عَزَّوَجَلَّ لعباده، كما بيَّن الله في هذه الآية، وكما قال جَلَّوَعَلَا في كتابه الكريم: ﴿ فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٦ ﴾ [الأعراف]، فالعباد يُسألون يوم القيامة، والأسئلة متعددة.

وحتى الأنبياء فإنهم يُسألون عن أقوامهم وعن أتباعهم، ومَن الذي أجابهم ومَن الذي أعرض عنهم؛ ﴿ فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٦ ﴾ [الأعراف]،

قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «فَبِي تُفْتَنُونَ، وَعَنِّي تُسْأَلُونَ» [أخرجه أحمد (٢٥٠٨٩)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا].

وهكذا يقول الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم مبينا أنّ أعظم ما يُسأل عنه العباد يوم المعاد هو توحيده تبارك وتعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر]؛ قال الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: «وَقَالَ عِدَّةٌ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر]، عَنْ قَوْلِ: لاَ إِلَهَ إِلَّا الله» [«صحيح البخاري» (١/ ١٤)]؛ أي يُسْألون عن توحيد الله تبارك وتعالى، الذي خلقهم الله عَزَّوَجَلَّ لأجله، وأوجدهم لإقامته، وعن البعد عن ما يضاده، وهو الشرك به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

يُسْألون عن التوحيد، يُسألون عن العقيدة الصحيحة، يُسألون عن «لا إله إلا الله»، هل أتوا بها وشروطها وواجباتها وابتعدوا عما يناقضها؟

ومن الأسئلة ما يقرر الله عَزَّوَجَلَّ به العباد يوم المعاد؛ فيُبَيِّن لهم أقوالهم وأفعالهم، ويسألهم عن صغيرها وكبيرها.

جاء في «صحيح الإمام مسلم» من حديث أَبِي ذَرٍّ الغفاري، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «إِنِّي لَأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا الْجَنَّةَ، وَآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا، رَجُلٌ يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُقَالُ: اعْرِضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ، وَارْفَعُوا عَنْهُ كِبَارَهَا، فَتُعْرَضُ عَلَيْهِ صِغَارُ ذُنُوبِهِ، فَيُقَالُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا، وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: نَعَمْ، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنْ كِبَارِ ذُنُوبِهِ أَنْ تُعْرَضَ عَلَيْهِ، فَيُقَالُ لَهُ: فَإِنَّ لَكَ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً، فَيَقُولُ: رَبِّ، قَدْ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لَا أَرَاهَا هَا هُنَا» فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ؛ [أخرجه مسلم (١٩٠)].

وفي «الصحيحين» عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ

يَقُولُ: «إِنَّ اللهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا، أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ اليَوْمَ، فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الكَافِرُ وَالْمُنَافِقُونَ، فَيَقُولُ الأَشْهَادُ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨﴾ [هود]»؛ [أخرجه البخاري (٢٤٤١) ومسلم (٢٧٦٨)].

وفي الصحيحين عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلاَ يَرَى إِلَّا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، وَلَوْ بِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ» [أخرجه البخاري (٧٥١٢)، ومسلم (١٠١٦)].

يا أيها الناس، إنّ مما نُسأل عنه يوم القيامة لهي نعم الله عَزَّوَجَلَّ التي علينا تترى، وإلينا تتوالى ليلًا ونهارًا، سِرًّا وجهارًا، نُسْأل عن صغيرها وكبيرها بين يدي الله تبارك وتعالى؛ روى الإمام الترمذي في «جامعه» من حديث أبي هريرة، قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ - يَعْنِي العَبْدَ مِنَ النَّعِيمِ - أَنْ يُقَالَ لَهُ: أَلَمْ نُصِحَّ لَكَ جِسْمَكَ، وَنُرْوِيَكَ مِنَ المَاءِ البَارِدِ» [أخرجه الترمذي (٣٣٥٨)، وصحَّحه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ]؛ حتى الماء تُسْأَلُ عنه، تُسأل عن الصحة، تُسأل عن سائر النعم، تُسأل عن ما أكرمك الله عَزَّوَجَلَّ به من الجوارح التي تتمتع بها.

أَلَمْ نُصِحَّ لك جسمك؟ تُسأل نرويك من الماء البارد؟ وفي روايات: «يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَا ابْنَ آدَمَ حَمَلْتُكَ عَلَى الْخَيْلِ وَالْإِبِلِ، وَزَوَّجْتُكَ النِّسَاءَ، وَجَعَلْتُكَ تَرْبَعُ، وَتَرْأَسُ، فَأَيْنَ شُكْرُ ذَلِكَ» [أخرجه أحمد (١٠٣٧٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]، وجاء عند أحمد وأبي داوود من حديث الزبير بن العوام وهو في «الصحيح المسند»، وَلَمَّا نَزَلَتْ: ﴿ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ٨﴾ [التكاثر]، قَالَ الزُّبَيْرُ: أَيْ رَسُولَ الله، أَيُّ نَعِيمٍ نُسْأَلُ عَنْهُ، وَإِنَّمَا - يَعْنِي - هُمَا الْأَسْوَدَانِ: التَّمْرُ وَالْمَاءُ؟ قَالَ: «أَمَا إِنَّ ذَلِكَ سَيَكُونُ» [أخرجه أحمد (٣/ ٢٥)].

ولو كان تمرًا وماءً، فإنّه يُسأل العبد عن هذه النعمة، ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ [التكاثر]، عن كل نعمة، وعن كلّ ما أكرم الله عَزَّوَجَلَّ به العبد يسأل عنه يوم القيامة.

ومما يُسأل العبد عنه يوم القيامة، ما جاء عند الترمذي وغيره، من حديث جابر، ومن حديث ابن مسعود، ومن حديث أبي برزة الأسلمي، وجاء عن ابن عمر؛ قَالَ رَسُولُ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ: «**لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ**» [وبهذا اللفظ أخرجه الترمذي (٢٤١٧)، من حديث أَبِي بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ]، وفي رواية أخرى من حديث ابْنِ مَسْعُودٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ قَالَ: «**لَا تَزُولُ قَدَمُ ابْنِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ، عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ، وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ**» [أخرجه الترمذي (٢٤١٦)].

لا تتحرك قدما عبد، لا تتحرك يمنة ولا يسرة يوم القيامة، حتى يفاجأ بهذه الأسئلة، كل عبد، فإن هذا من ألفاظ العموم: «**لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ**»، نكرة في سياق النفي، وإنما يخص منها قوله عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ...**» الحديث [أخرجه البخاري (٦٤٧٢)، من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا]، وأمّا غيرهم فإنّها تمر بهم هذه الأسئلة: «**عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ، وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ**».

قال القرطبي رَحِمَهُٱللَّهُ في «التذكرة»: لم يقل: وعن علمه ماذا قال به، وإنما قال: وعن علمه ماذا عمل به. فالأمر مخوف وجلل.

يا أيها الناس، ماذا أعددنا لهذه الأسئلة بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ؟ لا تلتفت يمنة ولا يسرة، ولا تتحرك ولا تزول قدمك حتى تفاجأ بهذه الأسئلة، تسأل عن عمرك فيما أفنيته؟ وعن شبابك ما أبليته؟ وفي رواية: «**وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ**»؟ وعن علمه ماذا عمل به؟ وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه؟ فهل أعددت لهذه الأسئلة أجوبة عند الله تبارك

◈ الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، حمدًا كثيرًا طيِّبًا مباركًا فيه، كما يُحِبّ ربنا ويرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

أمّا بعد، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ٣٦﴾ [الإسراء]، أنتَ ستسأل عن الصغير والكبير، وعن النقير والقطمير، وعن القليل والكثير من الأقوال والألفاظ.

أَوَما سمعت قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ١٨﴾ [ق].

فأنت ستُسأل عن أعمالك وأقوالك وأفعالك ومعتقداتك، ﴿وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٞ ٥٣﴾ [القمر]، وفي كتاب منشور بين يدي الله تبارك وتعالى.

ومن النعم التي يسأل العبد عنها يوم القيامة، ويُتفحَّص أصحابها، بل أخبر النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم أنّ منهم من يفشل فيها ويلقى الله عَزَّوَجَلَّ وهو من الخاسرين: المجاهدون في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، وحفظة القرآن والعلم، وأهل النفقات والصدقات.

روى الإمام مسلم والنسائي من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ يَقُولُ: «**إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ**

عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ» [أخرجه مسلم (١٩٠٥) - وهذا لفظه -، والنسائي في «الكبرى» (٤٣٣٠)].

«قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ»: فاتقوا الله يا قُرّاء القرآن ويا طلبة العلم، فلا خير في عِلْمٍ عاقبته نار جهنم.

إذًا فقد يفضح أصحاب الأعمال الصالحة في ظاهرها إن لم يصدقوا مع الله عَزَّوَجَلَّ، يُسألون عنها يوم القيامة، وإذا بأعمالهم كانت في الدنيا ليست ابتغاء لوجه الله تبارك وتعالى؛ قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم: «بَشِّرْ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِالتَّيْسِيرِ، وَالسَّنَاءِ، وَالرِّفْعَةِ فِي الدِّينِ، وَالتَّمْكِينِ فِي الْبِلَادِ، وَالنَّصْرِ، فَمَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ عَمَلًا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ لِلدُّنْيَا فَلَيْسَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ» [أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٦٤١٦)، من حديث أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

وهكذا عباد الله، أخبر الله عَزَّوَجَلَّ أنّ العباد يسألون صغيرهم وكبيرهم، لا يستثنى منهم أحد، كما سمعتم في الآيات المتقدمة.

فالحذر الحذر من الغفلة عن طاعة الله جَلَّوَعَلَا، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾[الحجر]، وإن كان الإمام البخاري فَسَّرها بـ«لا إله إلا الله» إلّا أنّ الآية عامّة عن كلّ ما يفعله العباد، وعن كلّ ما يقوله العباد، وعن كل ما تجنيه أيديهم، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾[الحجر].

فنسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يُوَفِّقنا وإيّاكم لما يحبه ويرضاه، وأن يُجَنِّبنا ما يكرهه ويأباه؛ إنّه على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير؛ والحمد لله رب العالمين.

[١٩] أسئلة يوم القيامة (٢)

◈ الخطبة الأولى:

إنّ الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾[آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١ ﴾ [الأحزاب].

أما بعد، فإنّ أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون عباد الله، كان حديثنا في الجمعة الماضية عن بعض أسئلة يوم القيامة التي يتعرض لها العباد بيوم الميعاد بين يدي الله تبارك وتعالى.

وها نحن نضيف في هذا المقام بعض ما ذكر النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم مما يسأل عنه العباد في ذلك اليوم العظيم، يوم يقف العباد بين يدي الله تبارك وتعالى صغيرهم وكبيرهم، إنسهم وجِنّهم، عربهم وعجمهم، مؤمنهم وكافرهم.

روى الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في «صحيحه» من حديث عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «**أَلاَ كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالإِمَامُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ،**

وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى أَهْلِ بَيْتِ زَوْجِهَا، وَوَلَدِهِ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ، وَعَبْدُ الرَّجُلِ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ، أَلاَ فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ» [أخرجه البخاري (٧١٣٨)، ومسلم (١٨٢٩)].

وهذا حديث عظيم، يُبَيِّن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أنّه ليس مِن أحد من الإنس والجن إلّا وسُيْسَأل بين يدي الله تبارك وتعالى، ولو لم يكن من هؤلاء الأصناف المذكورين في هذا الحديث، وَلَوْ لم يكن إماما راعيا، ولا رجلا ذا بيت وأهل، ولا امرأة متزوجة، ولا عاملا وخادما، فإنه مسئول لقوله: «**أَلاَ فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**».

وذكر في مقدّمتهم الإمام، الأمير الذي يكون مسئولا عن رعيته سواء كانت قليلة أو كثيرة، وسواء كانت ولاية خاصة أو ولاية عظمى عامة.

«**فَالإِمَامُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**»، سيُسأل بين يدي الله تبارك وتعالى عن هذه الرعية، هل سعى في مصالحهم وما يعود عليهم بالنفع؟ سيسأل يوم القيامة أين هو من هذه الرعية؟ هل حكم فيهم بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وبسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ؟ أم حَكَم بينهم بالقوانين الشرقية والغربية البشرية التي تخالف شرع رب العالمين؟ ونبي هذه البرية سيُسأل يوم القيامة هل دفع عن رعيته الشرور والفتن والمحن؟ هل سعى في إصلاحهم وإبعادهم عن ما يفسدهم، فيسأل يوم القيامة عن هذه الرعية؟ هل أبعد عنهم أعداءهم، الذين يسعون في سلب عقيدتهم وتدنيس أخلاقهم وإذهاب قيمهم؟ سيُسأل عن هذه الرعية كيف تعامل معهم؟

«**أَلاَ كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالإِمَامُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**»، ينبغي أن يعلم كلّ مسؤول وكل راع أنّ هذه المسؤولية التي يتحملها سيُسأل عنها بين يدي الله تبارك وتعالى.

بعض الذين يصلون إلى هذه المناصب والولايات، ويحصلون على الأمور في الدنيا من المناصب الرفيعة، يظنون أنّ هذا إكرام من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ثم بعد ذلك يصيبهم

الغرور ويقعون في الفجور - إلّا مَن رحم الله عَزَّوَجَلَّ - فيعبثون بالأموال ويقعون في الظلم، ويقعون في الزلات والأخطاء، وربما يتعمدون ذلك - إلّا من رحم الله عَزَّوَجَلَّ -؛ وما علم هؤلاء أن هذه المسئولية، يعني أنهم سيسألون عنها يوم القيامة وعن كل فعل وعن كل قول قالوا به، فالإمام راع ومسؤول عن رعيته.

فالمسؤول معناه أنّه سَيُسأل يوم القيامة بين يدي الله تبارك وتعالى عما جنَت يداه، وعما عبث به في الحياة الدنيا.

فعلى الإمام أن يتقي الله عَزَّوَجَلَّ في رعيته، وأن يسعى فيما ينفعهم ويصلحهم كما كان نبي الأمة ورسول الهدى صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وكما كان خلفاؤه الراشدون الكرام ومَن بعدهم مِن أولئك الملوك العظام الذين سعوا في مصالح الأمة وإبعاد عنها ما يفسدها ويعطبها.

فالإمام يتحمل مسؤولية عظيمة، سيسأل عنها بين يدي الله تبارك وتعالى، يتحمل كثيرا من الذمم، يتحمل كثيرا من الدماء، يتحمل كثيرا من المظالم، يتحمل كثيرا من الأمور التي يخالف فيها شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فإن لم يتق الله عَزَّوَجَلَّ في هذه الولاية فإنها وبال عليه يوم القيامة.

فالولايـــات وإن طابـــت لمـــن ذاقهـــا فالســـم في ذاك العســـل

هكذا يقول ابن الوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

«**وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**»، هو مسؤول عن أبنائه، مسؤول عن بناته، مسؤول عن زوجاته، مسؤول عن كُلّ مَن ولّاه الله عَزَّوَجَلَّ عليهم من أهل بيته، مسؤول عليهم وهو راع لهم ومسؤول عن رعايتهم، أن يرعاهم رعاية حسنة بما يرضي الله عَزَّوَجَلَّ، يبعدهم عما يسخطه، يقربهم إلى ما يرضيه؛ قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦ ﴾ [التحريم].

الرجل راع في أهل بيته، ينظر في مصالحهم، ينفق عليهم بما استطاع، بما أوجب الله عَزَّوَجَلَّ عليه، يوجههم إلى دين الله عَزَّوَجَلَّ، يعلمهم العقيدة الصحيحة، يعلمهم الأخلاق الفاضلة والمعاملات الحسنة، يحرص على سلامة دينهم وخلقهم وعباداتهم وطاعاتهم لله تبارك وتعالى، سيُسأل عن هذه الرعية إن ضيّعهم فضاع دينهم وأخلاقهم.

قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**مَا مِنْ عَبْدٍ اسْتَرْعَاهُ اللهُ رَعِيَّةً، فَلَمْ يَحُطْهَا بِنَصِيحَةٍ، إِلَّا لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ**» [أخرجه البخاري (٧١٥٠)، من حديث مَعْقِل بْن يَسَارٍ]؛ الذي يُضَيِّع أبناءه، ويُضَيِّع بناته، وربما يضيع زوجته، سيُسأل يوم القيامة عن ذلك. الذي يترك ابنته تذهب فتخالط الرجال سواء كان في الجامعات أو في الأعمال والأشغال أو في الأسواق وأماكن الاجتماعات، سيُسأل عن هذه الأمانة يوم القيامة، ويُعَدُّ خائنا مضيِّعا كما أخبر النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، مُضَيِّعا لهذه الأمانة؛ الذي يضيع أبناءه فتفسد أخلاقهم بمجالسة وحوش البشر وجلساء السوء، فيضيعون دينهم ويضيعون أخلاقهم، سيُسْأل عنهم وَلِيُّهم يوم القيامة.

«**مَا مِنْ عَبْدٍ اسْتَرْعَاهُ اللهُ رَعِيَّةً، فَلَمْ يَحُطْهَا بِنَصِيحَةٍ، إِلَّا لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ**»؛ فليتق الله عَزَّوَجَلَّ الآباء، وليحرصوا على صلاح أبنائهم وعلى سلامتهم وعلى المحافظة عليهم، فإنّنا في زمن يسعى أعداء الإسلام لإفساد هذه الأمة رجالا ونساء كبارا وصغارا، ولكن أنظارهم تتطلع وتتركز على أبناء المسلمين في شبابهم وفي صغرهم لإفساد أخلاقهم.

«**وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**»، سيُسْأل عن كل صغير وكبير حصل لأهله، حصل لأبنائه، حصل لبناته، وكان سببا في ذلك ومُضَيِّعا لذلك. سيُسأل بين يدي الله تبارك وتعالى، فالحمل ثقيل والأمانة عظيمة.

فيجب على الآباء أن يتقوا الله عَزَّوَجَلَّ، وأن يسعوا إلى القيام بهذه الأمانة والحفاظ على هذه المسؤولية، والرعاية بما أخبر به رب البرية سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

«**وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى أَهْلِ بَيْتِ زَوْجِهَا، وَوَلَدِهِ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ**»، هي مسؤولة عن بيت زوجها، هي مسؤولة عن عِرْضِها، هي مسؤولة عن مال زوجها، مسؤولة في غيابه،

مسؤولة في حضوره، مسؤولة عن أبنائه، هي متحملة مسؤولية عظيمة وخصوصا الأبناء في صغرهم، فإن الأم تتحمل حملا عظيما أكثر من الأب فهي التي توجههم إلى الخير أو توجههم إلى الشر، هي التي تعينهم على الطاعة أو تعينهم على المعصية.

إذا رأيت البنت تتبرج، فاعلم أنّ أمّها هي التي تساهلت في ذلك، وهي التي سعت لذلك، وهي التي رضيت بذلك، فتكبر هذه البنت على الفجور أو على السفور أو على التبرج، والأم مسؤولة عن ذلك، فإنها إن ربتها على الحشمة والعفة والحجاب والحياء من صغرها صارت على ذلك بإذن الله تبارك وتعالى؛ إذا ربت ابنتها وطفلها على الكلام الحسن والمعاملة الطيبة والخلق الجميل، وحَذَّرت أبناءها من صغرهم من الأخلاق الفاسدة والكلام الشاذ البذيء تربوا على ذلك بإذن الله تبارك وتعالى.

«**وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى أَهْلِ بَيْتِ زَوْجِهَا، وَوَلَدِهِ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ**»، هي مسؤولة عن عِرْضِها وشَرَفِها وعِرْضِ زوجها في حضوره وفي غيابه. فعليها هذه المسؤولية العظيمة، ستُسأل عنها بين يدي الله تبارك وتعالى.

الأُمُّ مَدرَسَـــــةٌ إِذا أَعـــــدَدتَها أَعـدَدتَ شَـعباً طَيِّـبَ الأَعـراقِ

إذا رأيت الأبناء ورأيت البنات على حالة يرثى لها من الشر والفساد، فاعلم أنّ السبب الأكبر هي الأم والأب، وخصوصا الأم في صغرهم، فلتتق الله عَزَّوَجَلَّ الأمهات ولتحافظ على الأبناء والبنات، وتربيهم التربية الصالحة وعلى الأخلاق الفاضلة وتوجههم إلى أن يتعلموا دين الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى؛ فإنّها ستُسأل عن هذا بين يدي الله تبارك وتعالى.

والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، فإن ضَيَّعت هذه المسؤولية فالحساب شديد والعقاب عظيم بين يدي الله تبارك وتعالى.

◈ الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، حمدًا كثيرًا طيِّبًا مباركًا فيه، كما يُحِبّ ربنا ويرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

أمّا بعد، يقول النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**وَعَبْدُ الرَّجُلِ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ**»، وهذا ليس خاصا بالعبد، وإنما كل من استرعي على أمانة يحفظها، فإنّه راع فيها ومسؤول عن هذه الرعية، ومسئول عن هذا المال، ومسؤول عن هذه الأمانة أيا كانت هذه الأمانة، سواء كانت بين العبد والسيد، أو بين العامل وصاحب العمل، أو بين المؤتمن وصاحب الأمانة، أو بين العبد وربه سبحانه.

قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب].

إذا ضيع العبد الأمانة سواء كان بينه وبين سَيِّده إن كان عاملا، فإنّه سيُسأل عن ذلك بين يدي الله تبارك وتعالى؛ فليتق الله عَزَّوَجَلَّ المرء في كلّ ما يؤتمن عليه حتى في عقيدته وحتى في عبادته، فإن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقول في آخر الحديث وفي أوله: «**أَلاَ فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**»؛ فمن لم يكن إماما ولا رجلا ذا أهل وولد ولا امرأة متزوجة ولا خادما وعاملا، فهو كذلك مسؤول عن رعيته، وهو راع لو كان فردا ليس من هؤلاء الأصناف فإنه راع على جوارحه، فهو راع على سمعه، وراع على بصره، وراع على لسانه، وراع على عقيدته، وراع على عبادته، وراع على معاملته، وراع على ما بينه وبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فعليه أن يتقي الله عَزَّوَجَلَّ، فيقوم بما أمر وينتهي عما نهى عنه وزجر، ويلتزم الحدود فيقف عندها، ويتقي الله عَزَّوَجَلَّ في السراء والضراء والشدة والرخاء، ويراقب الله جَلَّ وَعَلَا في السر والعلن، هذا الذي يخشى أن يفضح بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ وأن يلقى الله سبحانه وقد ضيّع هذه الرعاية وفرّط في هذه الأمانة.

«**أَلاَ فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**»، لو لم تكن عندك رعية فأنت مسؤول بين يدي الله، لا يفر أحد من هذه الأسئلة، ستُسأل عن أقوالك وعن أفعالك وعن أعمالك، لو كنت معلما ومدرسا فإنك ستُسأل عن هذا العلم وعن العمل به، وعن هذه الوظيفة لو كنت موظفا، وعن هذا الطب لو كنت طبيبا، ماذا صنعت في هذه الأمانة؟ لماذا أفسدت أجساد الناس؟ لماذا أفسدت عقول الناس؟ لماذا ضيَّعت هذه الأمانة؟

«**أَلاَ فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**»، لو كنت عاملا في مزرعة من المزارع لكنت مسؤولا بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ عن هذه الأمانة التي قمت بها وتحملتها، إذا فأنت مسؤول عن كل ما تأتي وتذر، فأعِدّ لهذه الأسئلة أجوبة عند الله تبارك وتعالى.

«**كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**» قَالَ: - وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ - «**وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**» [أخرجه البخاري (٨٩٣)، من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا].

تصوّر وأنت تُسأل يوم القيامة عن سَمعك فيما استعملته وفيما عملت به، تُسأل عن بصرك، تُسأل عن لسانك، تُسأل عن يديك، تُسأل عن قدميك، تُسأل عن فرجك، تُسأل عن كل صغير وكبير أكرمك الله عَزَّوَجَلَّ به، فكيف تكون الإجابة؟

«**أَلاَ فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**»، ولا يلزمك ما تقدم أن تكون مسؤولا عن الآخرين، فإنَّ لك أيضا من الرعاية وعليك من المسؤولية بين يدي الله تبارك وتعالى.

وفق الله الجميع لما يحب ويرضى، والحمد لله رب العالمين.

[٢٠] محاضرة: تذكير العباد ببعض مواقف يوم المعاد

إنّ الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾[آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١ ﴾ [الأحزاب].

أما بعد، فإنّ أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون عباد الله، يقول الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٨١ ﴾ [البقرة]، بعد أن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ الربا وخطورته وعقوبة أهله، ذكَّر عباده بيوم المعاد، فقال: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٨١ ﴾ [البقرة].

وإنّما ذكَّر الله عَزَّوَجَلَّ العباد بذلك اليوم الذي يرجعون فيه إليه، لشِدّة ما يلاقون فيه، ولِعِظَم ما يُقْدِمون عليه، فإنه يوم ﴿ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ٤ ﴾ [المعارج]، كما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم.

يوم عظيم يجمع الله عَزَّوَجَلَّ فيه الأولين والآخرين؛ ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ في سورة

هود: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [هود].

ويقول عنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سورة المطففين: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [المطففين].

إنّه يوم عظيم، تَصَوَّر من زمن آدم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إلى قيام الساعة، يقوم العباد أجمعون من الإنس والجن، ألا يكون يوما عظيما؟ ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [المطففين].

ولهذا حذّر الله عباده أن يغفلوا عن ذلك اليوم، وشَدَّد وأكّد وذكّر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ببعض أوصافه ومراحله، قال الله عَزَّوَجَلَّ في سورة الحج: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ ﴾ [الحج]، مِن شِدّة العذاب ومن عظيم ذلك الموقف تحصل هذه الأمور العظيمة: ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴾ [الحج: ٢]، المرأة التي تُرضِع ولدها في الدنيا إذا اشتد عليها أمر أو حصلت لها كارثة أو مصيبة يشتد ضمّها لطفلها وإرضاعه، وأمّا في عرصات القيامة تذهل عنه، تُشغل عنه، تنساه.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ ﴾ [الحج]؛ يوم القيامة يوم عظيم، يوم يجمع الله عَزَّوَجَلَّ فيه العباد حافية أقدامهم، عارية أجسادهم، شاخصة أبصارهم، والشمس قد دنت منهم قدر ميل.

قال بعض الرواة: لا أدري الميل الذي يكتحل به أم الذي يقاس به الأرض؟ والناس قد غَرِقوا في عرقهم على حسب أعمالهم، ينتظرون فصل القضاء، يلجؤون إلى الأنبياء نبيا نبيا، وكل واحد يقول: «نَفْسِي نَفْسِي»، فهو يوم عظيم، يحاسب فيه العباد، ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ۝٤٧﴾ [الأنبياء].

ليس في ذلك اليوم ظلم ولا جور، كلّ ذي مظلمة يأخذ مظلمته، ولهذا قال نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أو شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلله مِنْهُ اليَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لاَ يَكُونَ دِينَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ**» [أخرجه البخاري (٢٤٤٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

يا أيها الناس، لو قَلَّبْنا صفحات القرآن العظيم، ونحن نقف عند الآيات التي ذكر الله فيها يوم القيامة بأسمائه المتنوعة، وأوصافه المتعددة، ومواقفه الشديدة، ولو نظرنا في سنة النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم الصحيحة، لوجدنا شيئًا كثيرا مما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ وذكّر به عباده لينتبهوا وليتعظوا، ولهذا تارة يقول لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١﴾ [الحج]، وتارة يقول: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١].

وهكذا يحذرهم من القيامة، ويُفَخِّم مِن شأنها، ويُعَظِّم مِن أمرها: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١﴾ [القيامة]، وهنا معناه أنه أقسم بها لعِظَمِها، وإنّما كلمة ﴿لَآ﴾ صلة وتوكيد، وإلّا فقد أقسم بها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

إذا نظر الإنسان في تلك الأدلة نظر المتمعن المتفحص المتدبر، فإنّ ذلك يحمله على الرجوع إلى الله تبارك وتعالى، واليقظة والقيام من السبات والغفلة، والبعد عن معصية الله جَلَّ وَعَلَا، ولكننا عباد الله نقرأ كثيرا ونفهم قليلا، نقرأ كثيرا ونتدبر قليلا، إلا من رحم

الله عَزَّوَجَلَّ.

مواقف يوم القيامة كثيرة جدا، وإنما أردت في هذا المقام أن أذكِّر نفسي أولا، وإيّاكم ثانيا، ومن سمع ثالثا، بموقف عظيم نقف فيه جميعا يوم القيامة، رجالا ونساء، موقف عظيم لو تذكرناه وتأملناه وأيقنا أننا سنمر به لأعددنا العدة وتزودنا بطاعة الله جَلَّوَعَلَا.

يا أيها الناس، إذا وقف العباد بين يدي الله تبارك وتعالى، بين يدي خالقهم الذي أوجدهم من العدم، وأمَدَّهم بكثير من النعم، الذي يعلم ظواهرهم وبواطنهم وأقوالهم وأفعالهم، يحاسبهم على الصغير والكبير، والنقير والقطمير. ومع ذلك، فإنّه يقيم عليهم الحجة في عرصات القيامة بذنوبهم وسيئاتهم حتى لا يكون لهم مفر ولا محيص، ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠﴾ [الذاريات].

يجعل الله عَزَّوَجَلَّ على العبد يوم القيامة من يشهد عليه ويفضحه بما جَنَت يداه في الدنيا، بما عمل في هذه الحياة مما كان قد أخفاه مع أنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى مطلع على كل صغير وكبير ونقير وقطمير؛ لكن لتعلم أنّك ستقف بين يدي ربّ الأرض والسماء، الحَكَم العدل، الذي لا يظلم مثقال ذرة، الذي خلقنا لعبادته، وأوجدنا لطاعته، وأمرنا بتوحيده، ونهانا عن الشرك به ومعصيته. يقيم يوم القيامة على العباد شهودًا على أعمالهم، ومِن أعظم الشهود الذين ذكرهم الله عَزَّوَجَلَّ: ذكر نفسه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ [التغابن: ٩]، يجمع العباد فيخسر من يخسر، ويغبن من يغبن، ويفوز من يفوز.

والله عَزَّوَجَلَّ مطلع على العباد رقيب، يبين لهم السيئات: ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٦﴾ [المجادلة].

الله عَزَّوَجَلَّ الذي يعلم السِّر وأخفى، مهما أخفيت عن أنظار الناس فالله يراك، مهما تسترت من الخلق فالخالق يراك، ﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ٢١٩﴾ [الشعراء].

فإذا كان يوم القيامة عدَّدَ عليك الأعمال، وعدَّد عليك الأقوال، وذكَّرَك بتلك الأفعال، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ۝٧٩﴾ [النساء].

وفي «الصحيحين» عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**إِنَّ الله يُدْنِي الْمُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا، أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ اليَوْمَ، فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الكَافِرُ وَالْمُنَافِقُونَ، فَيَقُولُ الأَشْهَادُ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٨﴾ [هود]**»؛ [أخرجه البخاري (٢٤٤١) ومسلم (٢٧٦٨)].

«**قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ اليَوْمَ**»، هذا المؤمن الذي وُصِف بالإيمان. فكيف بالكافر؟ وكيف بالمنافق؟ وكيف بالمعرض المتمرد؟ إذا كان هذا حال المؤمن تعرض عليه أعماله، يعرضها رب العالمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. إلى أين يفر؟ وبِمَن يحتمي؟ وإلى مَن يلتجئ؟

وممن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم، نبينا محمدا نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، نبي الرحمة، رسول الأمّة، محمد بن عبدالله الذي جاءنا بالخير كله، الذي تركنا على البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلّا هالك؛ الذي ما ترك بابا من أبواب الشرّ إلّا وحَذّر الأمّة منه، ولا بابًا مِن أبواب الخير إلا وأرشدهم إليه؛ بَلَّغ أتم البلاغ، وأوضح أتمّ الإيضاح، ما ترك شيئا إلا وأرشد العباد كيف يتعاملون فيه. يأتي يوم القيامة يشهد على هذه الأمة أنّه بلّغها، أنّه أوضح لها الطريق، أنّه أنار لها السبيل.

تصور يا عبد الله، يأتي يوم القيامة بعض الناس ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يشهد عليه بين يدي الله تبارك وتعالى، لا تُرَدُّ شهادته، فهو الصادق الأمين. وهو الرسول الكريم، الذي وفّى بما حمله الله عَزَّوَجَلَّ.

خَرَجَ رَسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا، فَصَلَّى عَلَى أَهْلِ أُحُدٍ صَلَاتَهُ عَلَى الْمَيِّتِ، ثُمَّ

انْصَرَفَ إلى المِنْبَرِ فَقالَ: «**إنِّي فَرَطٌ لَكُمْ، وَأَنَا شَهِيدٌ علَيْكُم، وإنِّي وَاللهِ لأَنْظُرُ إلَى حَوْضِي الآنَ...**» الحديث [أخرجه البخاري (١٣٤٤)، ومسلم (٢٢٩٦)، من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

«**وَأَنَا شَهِيدٌ علَيْكُم**»، وقال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلًا ١٦﴾ [المزمل].

أنتَ المتهم، والشاهدُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ! تصوَّر كيف يكون حالك في أرض المحشر، والحَكَم ربّ العالمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الذي يعلم ظاهرك وباطنك؟ إنه أمر عظيم وجَلَل.

جاء في «الصحيحين» من حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**اقْرَأْ عَلَيَّ**»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، آقْرَأُ عَلَيْكَ، وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ، قَالَ: «**نَعَمْ**» - وفي رواية: «**إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي**»- فَقَرَأْتُ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّى أَتَيْتُ إلى هَذِهِ الآيَةِ: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ٤١﴾ [النساء]، قَالَ: «**حَسْبُكَ الآنَ**» فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ، فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ؛ [أخرجه البخاري (٥٠٥٠)، ومسلم (٨٠٠)].

﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ٤١ يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ٤٢﴾ [النساء]، كيف يكون حال الذين يحاربون سنته، ويبتدعون في دين الله عَزَّوَجَلَّ، ويقفون إلى صف اليهود والنصارى والمشركين والمنافقين والملحدين؟ كيف يكون حال من يُحارِب سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ؟ يستهزئ بأحاديثه إذا عرضت عليه. كيف يكون حاله في أرض المحشر؟

﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ٤١﴾ [النساء]، قَالَ: «**حَسْبُكَ الآنَ**» فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ، فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ؛ بكى النبي

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وهو الذي مُلِئ قلبه رحمة لهذه الأمة، بل للعالم أجمع كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾ [التوبة].

حتى في عرصات القيامة، وهو يسعى في إنقاذ أمّته، فيشفع لهم كما جاء في الأحاديث المتواترة، بل ويقف إلى جنب الصراط والناس يتساقطون، كما في حديث الشفاعة أنّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «**وَنَبِيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ: رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ**» [أخرجه مسلم (١٩٥)، من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]، ومع هذا يشهد على مَن خالف أمرَه وابتعد عن سنته، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾ [البقرة: ١٤٣]. فالويل كلّ الويل لمن شهد عليه النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وقد خالف هديه وسنته، وابتعد عن دينه الذي جاء به عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

تصوروا يا أيها الناس، ونحن واقفون في ذلك الموقف، وقد خالفنا كثيرا من أوامر النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾ [البقرة: ١٤٣]، شهادته مقبولة عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

ولهذا قال في الحديث الصحيح: «**فَبِي تُفْتَنُونَ، وَعَنِّي تُسْأَلُونَ**» [أخرجه أحمد (٢٥٠٨٩)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا]، تُسأل عنه، وعن سُنَّتِه، وعن ما جاء به وأنت في قبرك. تُسْأل: «**مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟**»، تُسأل عنه وبه تفتن في قبرك؛ فَمَن خالف أمره وهديه وسنته كيف يكون حاله؟ وماذا تكون إجابته؟

وهكذا مما ذكر الله جَلَّ وَعَلَا في كتابه الكريم، ممن يشهد على العباد في عرصات القيامة وفي يوم المعاد، ما جعل الله عَزَّ وَجَلَّ من الملائكة الكرام الكاتبين الذين يُلازمون العبد في

الدنيا فيكتبون عنه كلّ قول وفعل، قال الله تبارك وتعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق]، أي من الملائكة؛ لا يقول قولًا ولا يلفظ لفظا إلّا ويُكتَب، تَكْتُبُه الملائكة؛ فإذا كان يوم القيامة وجمع العباد للحساب ولفصل القضاء، جاءت تلك الملائكة بما جمعت وبما كتبت، وهل يستطيع أحد أن ينكر ذلك أو أن يتخَلَّص منه أو أن يتملص؟

قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾ [ق]، ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾، ﴿كُلُّ﴾ من ألفاظ العموم، أنا وأنت والرجال جميعا والنساء، المتقدمون والمتأخرون، وجاءت كل نفس مؤمنة كافرة، برّة فاجرة، عرب عجم، جن إنس.

﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾ [ق]، أي من الملائكة، يأتي يوم القيامة العبد، وهناك مَن يسوقه ويجره من الملائكة، ومن الملائكة من يشهد عليه. تصوَّر وأنت تُقاد في أرض المحشر، إلى أين؟ إنّه إلى الله، تُقاد إلى الله عَزَّوَجَلَّ. مَن يقودك؟ ملائكة الرحمن، الذين قال الله عَزَّوَجَلَّ عنهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم]. والناس ينظرون، الذين في أرض المحشر جميعًا، وأنت تُقاد إلى الله، تُساق إلى الله، هذا يقودك وهذا يشهد عليك! قال كذا، فعل كذا، اعتقد كذا، سمع كذا، نظر إلى كذا، كيف يكون حالنا عباد الله؟

بعض الناس إذا أخذ إلى سجن، أو إلى قاضي محكمة، وحكم عليه بسجن بسبب تهمة، فأخذه بعض العساكر، وربما لا يراه إلا العدد القليل من الناس ولو كان مظلوما لكان في حالة من الضعف والحزن والكآبة، وفي حالة لا يعلمها إلا الله من الضيق وقد أدخل في سجن من سجون الدنيا، الذي ربما يعلم علم اليقين أنه يخرج منه عما قريب، وربما يكون بريئا ليس عنده شيء، فكيف وأنت تقادُ إلى الله، وأنت تعلم أنّ الصحف

مليئة، وأنّ الأقوال كثيرة، وأنّ الخطايا عديدة. وملائكة الرحمن يشهدون عليك. هل تستطيع أن تُنكِر شيئا؟ كيف ستدافع عن نفسك؟ بماذا تتحجج في ذلك الموقف؟ كيف يكون حالنا ومصيرنا وموقفنا ومآلنا، ونحن نحاسب هذه المحاسبة، ونُفضَح هذه الفضيحة بين يدي الله تبارك وتعالى؟ ألَا يكون هذا حاملًا لنا أن نتدارك ما بقي من أعمارنا وأن نعود إلى ربنا فنعمل العمل الصالح الذي به ننجو بإذن الله تبارك وتعالى في تلك المشاهد العظيمة.

يا أيها الناس، مما ذكر عَزَّوَجَلَّ أيضًا، ما يُكتَب في تلك الصحائف التي تُقَيَّد فيها أعمال العباد: ﴿وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٞ ٥٣﴾ [القمر]؛ لا تظن أنّ الأعمال تذهب هباء، ولا أنها تُنسى، ولا أنّه يغفل عنها؛ لا والله، كل شيء يكتب، وكل شيء يُقيَّد إن خيرا فخير، وإن شرا فشر؛ ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ٨﴾ [الزلزلة].

كُلّ ما جنَت يداك في الدنيا، سُيعرَض عليك يوم القيامة، تلك الصحف التي جمعت فيها الأعمال تُعرَض على أصحابها يوم القيامة، قال الله جَلَّوَعَلَا في كتابه الكريم: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ١٣ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ١٤﴾ [الإسراء].

﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ﴾ حتى لو كان في الدنيا لا يستطيع أن يقرأ، ما تعلم.

﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ١٤ مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ١٥﴾ [الإسراء]، يُقَلِّب الصفحات ويجدها مليئة مسودة، مليئة بالمخالفات الشرعية، يجدها فارغة من الحسنات والطاعات.

قال الله جَلَّوَعَلَا في كتابه الكريم: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ

﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ٤٩﴾ [الكهف]؛ وجدوا كل شيء، كل سيئة جنتها أيديهم في الدنيا وجدوها، كل قول وفعل رأوه، ولهذا يقولون: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ٤٩﴾، لَا يظلم ربك أحدا الحسنات والسيئات.

ولهذا تعرف حديث البطاقة، ذاك الذي نشر له سجلات مد البصر، مليئة بالأوزار، مليئة بالمخالفات، ثم جيء له بالتوحيد، فكان مُرجِّحا لحسناته، فلا يذهب شيء من الأعمال.

إن كنتَ تتعامل مع أحد، فإنّك ممكن أن تغالطه يوما أو يومين، أو شهرا أو شهرين، وربما حتى يموت. وقد تُفضَح وأنت تُعامِل واحدا من البشر؛ لكن مع الله جَلَّوَعَلَا كل شيء يظهر، أَوَ مَا سمعت قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ ١٨﴾ [الحاقة]، أما نخشى من الفضيحة؟ أما نخاف من هذا الموقف؟ ﴿يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ ١٨﴾ [الحاقة].

فَتِّش عن عيوب قلبك. انظر أين أنت من طاعة الله؟ أين أنت مِن مراقبة الله؟ أين أنت من خشية الله؟ أين أنت من الله؟ ﴿يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ ١٨﴾ [الحاقة].

وهكذا معاشر المؤمنين، مما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه، ممن يشهد على الناس بأعمالهم الأرض، الأرض التي نحن عليها، لا تظن أنّ الأحجار والأشجار والتراب غافلة، لا والله، إن الله عَزَّوَجَلَّ يجعلها يوم القيامة تتحدث بما عملت على ظهرها وإن خلوت بنفسك، وإن ابتعدت عن أنظار الناس، وإن كنت في ظلمات الليالي، وإن كنت بعيدا عن أهلك، وعن من يعرفك من الناس، فملائكة الرحمن لا يفارقونك، وربّ العالمين مطلع عليك، بل والأرض التي أنت عليها ستشهد عليك يوم القيامة. إذا أين المفر عباد الله؟

قال الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ ﴾ [الزلزلة]، سبحان الله، أحجار، تراب، صخور، جدران، تتحدث بالأخبار يوم القيامة؛ قال المفسرون عند هذه الآية: الأرض تتحدث بما عمل العباد على ظهرها.

﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾ [الزلزلة]، كم نقرأ هذه السورة عباد الله؟ لا أظنُّ أحدًا في المسجد إلّا وهو يحفظ هذه السورة. ليس منكم أحد إلا وهو يحفظ هذه السورة، إلا أن يكون طِفلا صغيرا لا يُحسِن شيئا.

هل تدبرنا هذه السورة؟ الأرض يأذن الله عَزَّوَجَلَّ لها يوم القيامة، بل يوحي إليها أن تتحدث بما عمل العباد عليها، فالله عَزَّوَجَلَّ ما خلقنا على هذه الأرض هملا ولا أوجدنا عبثا، ما رزقنا هذه النعم على هذه الأرض لنضيع دينه ونخالف أمره ونتعدى حدوده ونترك كتابه وسنة نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ؛ خلقنا لطاعته، لتوحيده، لعبادته، لإقامة شرعه، للرجوع إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الأرض تتحدث، تصور أنت المتهم في قفص الاتهام، وكل هؤلاء يشهدون عليك، كيف سيكون الحكم؟ ليس لك محامي ولا مال ولا عشيرة ولا قبيلة ولا رشوة ولا شيء، لا ينفعك مالك ولا جمالك ولا منصبك ولا ما كنت تملكه في الحياة الدنيا، ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩ ﴾ [الشعراء].

ومما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ أيضًا في كتابه الكريم، وذكره النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وهو أشَدُّ على العبد مما مضى، لهي هذه الجوارح التي يحملها في جسده، التي منحه الله إياها وأكرمه بها، نعمة السمع، ونعمة البصر، نعمة اليدين، نعمة القدمين، نعمة الجلود والبشرة، نعمة الجسد كله.

هذه النعم، هذه الجوارح التي منحنا الله عَزَّوَجَلَّ إياها، تشهد علينا يوم القيامة إن نحن استعملناها في غير طاعة الله، روى الإمام مسلم في «صحيحه» من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ فَضَحِكَ، فَقَالَ: «**هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟**» قَالَ قُلْنَا: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ: يَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي، قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا، قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي، قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، قَالَ: ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، قَالَ فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ**» [أخرجه مسلم (٢٩٦٩)].

«**كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا**»، ويؤذن لجوارحه أن تنطق، فتنطق بما عمل بها في الدنيا، قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس]، الجوارح تتكلم، أذنُك تقول: كان يستمع كذا وكذا مما حرم الله، وهكذا عينك، وهكذا يدك، وهكذا رجلك، وهكذا فرجك. كلّ الجوارح تنطق بما عملت بها في الدنيا، وأنت مُكَمَّم لا تستطيع أن تدافع عن نفسك.

يقول الله عَزَّوَجَلَّ عن هذا في سورة فصلت: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [فصّلت].

يا أيها الناس، إذا كان هذا موقف واحد من مواقف يوم القيامة، كيف ببقية المواقف؟

كيف ببقية المراحل؟ كيف ببقية الأمور التي سنواجهها ونعاينها وتمر بنا ونحن نؤمن بذلك، من أركان الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ، الإيمان باليوم الآخر؛ فمَن لم يؤمن باليوم الآخر فليس بمؤمن بالله عَزَّوَجَلَّ. أين الإيمان بمثل هذه المواقف؟ أين الاتعاظ بقراءة القرآن الذي نقرأه؟ أين الاستفادة من هذا الكلام العظيم الذي أنزله أرحم الراحمين على قلب النبي الأمين عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، الذي قال الله عَزَّوَجَلَّ عنه في كتابه الكريم: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر].

كثرت الذنوب، فمرضت القلوب، فصارت لا تنتفع بكلام الله جَلَّوَعَلَا - إلّا من رحم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -؛ فاتقوا هذا اليوم عباد الله، ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة].

فوالله إنّ هذه المواقف تجعل العبد في ذلك اليوم في حسرة وندامة وألم شديد، لا يستطيع أن يستعتب، ولا أن يعتذر، ولا أن يرجع إلى الدنيا، يتمنى أن يتخلى عن كل قرين وعن كل مكان يملك في الدنيا وينجو من عذاب الله تبارك وتعالى.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [المعارج]، يقول: خذوا زوجتي، خذوا أولادي، خذوا أبي وأمي، خذوا عشيرتي، خذوا أهل الأرض جميعا، وأنجو أنَا من عذاب الله تبارك وتعالى.

لماذا وأنت في دار المهلة ضَيَّعْتَ عمرك؟ كنتَ في أمر يسير، طُلِبَ منك أن تُوَحِّد الله، طُلِبَ منك أن تؤدي الفرائض والواجبات، طُلِبَ منك أن تبتعد عن المحرمات، طُلِبَ منك أن تَقِف عند حدود الله، وكان بإمكانك.

لماذا ضيَّعت هذا العمر في غير طاعة الله تبارك وتعالى؟ ثم تريد أن تتخلص في عرصات القيامة، ذلك اليوم هو يوم الحساب والجزاء، انتهى وقت العمل، ذاك يوم

يحاسب فيه العباد، لا يستطيعون فيه الرجوع إلى الدنيا، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ۝٥٠﴾ [يس].

فينبغي للعبد أن يحذر في هذه الدنيا، وأن يُبادِر إلى طاعة الله، وأن يسعى إلى أن يعود إلى الله. ادع الله عبد الله، ادع الله إن كنتَ تجد في قلبك غفلة وإعراضا عن دين الله عَزَّوَجَلَّ، ادع الله أن يُصلِح قلبك، اخضع واخلع بين يدي الله، اجلس في أماكن الإجابة وأزمِنَتِها وتذلل بين يدي الله أن يُصلِح قلبك وأن يُعِينك على طاعته وأن يقودك إلى مرضاته وأن يبعدك عن سخطه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فإنّك إن فَرَّطت في الدنيا وأعرضت عن دين الله عَزَّوَجَلَّ، ندِمتَ ندامة ليس لك منها مخرج وليس لك منها مفر.

لا تستطيع أن تعود إلى الدنيا، فإما أن تخلد في النار، وإما أن تكون من أهل النعيم في الجنة، كما جاء عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «**يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا المَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: وهَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا المَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، فَيُذْبَحُ ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾ [مريم: ٣٩]، وَهَؤُلاَءِ فِي غَفْلَةٍ أَهْلُ الدُّنْيَا ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٩﴾** [مريم]» الحديث [أخرجه البخاري (٤٧٣٠)، من حديث أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٠٧ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ۝١٠٨﴾ [هود].

فالله الله عباد الله في الرجوع إلى الله تبارك وتعالى، والتذكّر للقاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن نعلم أنّنا من هذه الدنيا راحلون، وعلى الله مقبلون، وبين يديه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ موقوفون،

وسائلنا جَلَّ وَعَلَا عن الصغير والكبير، وعن النقير والقطمير.

قال المصطفى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلاَ يَرَى إِلَّا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، وَلَوْ بِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ**»

[أخرجه البخاري (٧٥١٢)، ومسلم (١٠١٦)، من حديث عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ بمَنِّه وكرمه وجوده وإحسانه أن يُعتِق رِقابَنا ورقابكم من النار، وأن يهدينا سواء السبيل، وأن يجعلنا ممن يستمع القول فَيَتَّبع أحسنه، إنه على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

[٢١] عقوبات العصاة في العرصات

◈ الخطبة الأولى:

إنّ الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾[آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١ ﴾ [الأحزاب].

أما بعد، فإنّ أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس عباد الله، يقول الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٨١ ﴾ [البقرة].

تقدّم حديثنا في جمع ماضية عن بعض مشاهد يوم القيامة، وعن ما يَمُرّ به العباد من تلك المراحل العصيبة، والمواقف الشديدة، من بعثهم ونشورهم، إلى قدومهم إلى جنة أو نار.

أيها الناس عباد الله، ربنا عَزَّوَجَلَّ يُحذِّرنا من أن نغفل عن يوم القيامة، ويُذَكِّرنا به كثيرا في كتابه الكريم، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ

عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢ ﴾ [الحج].

ولقد ذكر لنا ربنا في كتابه الكريم، ونبينا صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، أنّ من عباده من يعذبهم في عرصات القيامة في ذلك اليوم العظيم، يلقون جزاء أعمالهم بسبب ما جَنَت أيديهم في الحياة الدنيا. وقد ذكر الله عَزَّوَجَلَّ من ذلك جُمَلا كثيرة في كتابه وفي سنة نبيه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم؛ جملة من الذنوب التي يقترفها العباد، فيجازون بها يوم القيامة.

ونحن ذاكرون في هذا المقام شيئا يسيرًا من تلك الذنوب العظيمة التي بين الله عَزَّوَجَلَّ جزاءها يوم العرض الأكبر، فمن تلك الذنوب: كتمان العلم؛ فإنّ كتمان العلم وعدم الصدع بالحق ومخادعة الناس ذنب عظيم وجرم جسيم، يُعاقَب صاحبه يوم القيامة؛ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٧٤ ﴾ [البقرة].

وانظر إلى هذه العقوبات المتوالية التي تترتب على هذا الذنب العظيم، أن الله عَزَّوَجَلَّ لا يزكيهم يوم القيامة، بل ولا يكلمهم كلام رحمة، بل ولهم عذاب أليم.

وقد ثبت عن نبينا صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ كما في حديث أبي هريرة عند الإمام الترمذي، ومن حديث عبدالله بن عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ عند الحاكم، وجاء عن غيره، أنّ النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ قال: «**مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ عَلِمَهُ ثُمَّ كَتَمَهُ أُلْجِمَ يَوْمَ القِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ**» [أخرجه الترمذي (٢٦٤٩)].

فانظر كيف يكون حاله في العرصات من هذه العقوبات المتواليات.

ومن تلك الذنوب أيضا عباد الله، أن يمنع العبد ما أوجب الله عَزَّوَجَلَّ عليه من زكاة إذا كان قد بلغ النصاب وحال عليه الحول، وكان مما جاءت الأدلة بوجوب الزكاة فيه،

فإنّ ذلك يعاقب صاحبه عليه في العرصات، بل ماله الذي منع زكاته يكون ويلًا وعذابًا عليه. قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ٣٥﴾ [التوبة].

وثبت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**ما مِن صاحِبِ ذَهَبٍ ولا فِضَّةٍ لا يُؤَدِّي مِنْها حَقَّها، إلَّا إذا كانَ يَوْمُ القِيامَةِ صُفِّحَتْ له صَفائِحُ مِن نارٍ، فَأُحْمِيَ عليها في نارِ جَهَنَّمَ، فيُكْوَى بها جَنْبُهُ وجَبِينُهُ وظَهْرُهُ، كُلَّما بَرَدَتْ أُعِيدَتْ له، في يَومٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ ألْفَ سَنَةٍ، حتَّى يُقْضَى بيْنَ العِبادِ، فَيَرَى سَبِيلَهُ؛ إمَّا إلى الجَنَّةِ، وإمَّا إلى النَّارِ. قيلَ: يا رَسولَ اللهِ، فالإبِلُ؟ قالَ: ولا صاحِبُ إبِلٍ لا يُؤَدِّي مِنْها حَقَّها -ومِنْ حَقِّها حَلَبُها يومَ وِرْدِها- إلَّا إذا كانَ يَوْمُ القِيامَةِ بُطِحَ لها بقاعٍ قَرْقَرٍ أوْفَرَ ما كانَتْ، لا يَفْقِدُ مِنْها فَصِيلًا واحِدًا، تَطَؤُهُ بأخْفافِها وتَعَضُّهُ بأفْواهِها، كُلَّما مَرَّ عليه أُولاها رُدَّ عليه أُخْراها، في يَومٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ ألْفَ سَنَةٍ، حتَّى يُقْضَى بيْنَ العِبادِ، فَيَرَى سَبِيلَهُ؛ إمَّا إلى الجَنَّةِ، وإمَّا إلى النَّارِ. قِيلَ: يا رَسولَ اللهِ، فالبَقَرُ والغَنَمُ؟ قالَ: ولا صاحِبُ بَقَرٍ ولا غَنَمٍ لا يُؤَدِّي مِنْها حَقَّها، إلَّا إذا كانَ يَوْمُ القِيامَةِ بُطِحَ لها بقاعٍ قَرْقَرٍ، لا يَفْقِدُ مِنْها شيئًا، ليْسَ فيها عَقْصاءُ، ولا جَلْحاءُ، ولا عَضْباءُ، تَنْطَحُهُ بقُرُونِها وتَطَؤُهُ بأظْلافِها، كُلَّما مَرَّ عليه أُولاها رُدَّ عليه أُخْراها، في يَومٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ ألْفَ سَنَةٍ، حتَّى يُقْضَى بيْنَ العِبادِ، فَيَرَى سَبِيلَهُ؛ إمَّا إلى الجَنَّةِ، وإمَّا إلى النَّارِ...**» الحديث [أخرجه مسلم (٩٨٧)].

وفي حديث جابر في «صحيح مسلم» في حديث إثم مانعي الزكاة وفيه: «**وَلَا صَاحِبِ كَنْزٍ لَا يَفْعَلُ فِيهِ حَقَّهُ، إِلَّا جَاءَ كَنْزُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ، يَتْبَعُهُ فَاتِحًا فَاهُ، فَإِذَا أَتَاهُ فَرَّ مِنْهُ، فَيُنَادِيهِ: خُذْ كَنْزَكَ الَّذِي خَبَأْتَهُ، فَأَنَا عَنْهُ غَنِيٌّ، فَإِذَا رَأَى أَنْ لَا بُدَّ مِنْهُ، سَلَكَ يَدَهُ فِي فِيهِ، فَيَقْضَمُهَا قَضْمَ الْفَحْلِ**» [أخرجه مسلم (٩٨٨)، من حديث جَابِر بْن عَبْدِ الله الْأَنْصَارِيَّ

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

فانظروا عباد الله مَنَع زكاة المال فكان نارا عليه يوم القيامة، مَنَعَ زكاة الإبل والبقر والغنم، فجعلت تنطحه وتطأه أمام العالمين في عرصات القيامة، بل يتحول ماله ثعبانا شَرِسا أقرع قد مُلِئ رأسه بالسم، يطارده يوم القيامة ويقول له: أنا كنزك، أنا مَالُك! فانظر إلى هذه العقوبة العظيمة، والناس ينظرون إلى ذلك.

ومن تلك الذنوب أيضا عباد الله، المراءاة في الصلاة وعدم المحافظة عليها. قال الله جَلَّ وَعَلَا في كتابه الكريم: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [المُدَّثر].

وفي حديث أبي سعيد في «الصحيح» قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**يَكْشِفُ رَبُّنا عن ساقِهِ، فَيَسْجُدُ له كُلُّ مُؤْمِنٍ ومُؤْمِنَةٍ، فَيَبْقَى كُلُّ مَن كانَ يَسْجُدُ في الدُّنْيا رِياءً وسُمْعَةً، فَيَذْهَبُ لِيَسْجُدَ، فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا واحِدًا**» [أخرجه البخاري (٤٩١٩)].

يصير ظهره طبقا واحدا لأنه كان في الدنيا يرائي في صلاته، ولا يخضع ولا يخشع ولا يخلص لله تبارك وتعالى. يتمنى في عرصات القيامة أن يسجد سجدة واحدة، لكنه لا يستطيع، يتمنى أن يركع ركعة واحدة، لكنه لا يستطيع.

ومن تلك الذنوب أيضًا، أخذ أموال الناس بالباطل سواء كان اليتامى والأرامل أو كان الضعفاء، سواء كان في المال أو الممتلكات أو الأراضي والعقارات أو غير ذلك.

قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كما في «الصحيحين» من حديث عائشة وسعيد بن زيد وآخرين: «**مَنْ ظَلَمَ قِيدَ شِبْرٍ مِنَ الأَرْضِ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ**» [أخرجه البخاري (٢٤٥٣)، ومسلم (١٦١٢)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا].

انظر إلى هذه العقوبة التي يعاقب بها، فكيف بمن أخذ الأمتار؟ بل كيف بمن أخذ الكيلوهات؟ بل كيف بمن ظلم الضعفاء والمساكين، فأخذ أموالهم وبسط على أراضيهم وانتهك حرماتهم.

«**مَنْ ظَلَمَ قِيدَ شِبْرٍ مِنَ الأَرْضِ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ**»، تجعل تلك الأرض على عنقه طوقا، ليس من أرض واحدة ولكن من سبع أرضين.

وأما اليتامى، فالله يقول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ١٠ ﴾ [النساء]؛ المال الذي يأكله، والله عَزَّوَجَلَّ لم يحل له ذلك، ينقلب يوم القيامة نارا يتجلجل في بطنه.

ومِن تلك الذنوب عباد الله، الكِبْرُ، الكبر على الحق، الكبر على الناس، الكبر على الخلق والكبر عن الحق. إذا اتصف العبد بهذه الصفات الذميمة فإنّه يعاقب في عرصات القيامة، والجزاء من جنس العمل. قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ كما في حديث عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ، قَالَ: «**يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُوَرِ الرِّجَالِ يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَيُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولَسَ تَعْلُوهُمْ نَارُ الأَنْيَارِ يُسْقَوْنَ مِنْ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ طِينَةَ الخَبَالِ**»
[أخرجه الترمذي (٢٤٩٢)، وحسَّنه العلّامة الألباني]

المتكبِّر كان في الدنيا لا يرى أحدا، يحتقر الناس، يتعاظم، يتكبر في نفسه، يُعرِض عن الحق، ولا يقبل من الخلق؛ «**يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُوَرِ الرِّجَالِ يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَيُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولَسَ تَعْلُوهُمْ نَارُ الأَنْيَارِ يُسْقَوْنَ مِنْ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ طِينَةَ الخَبَالِ**»؛ انظر إلى هذه العقوبة يوم أن يتكبر العبد في هذه الحياة الدنيا، يبطر الحق ويغمط الناس ويحتقرهم. كيف يحشر بين يدي تبارك وتعالى؟ يُحشر كأنّه ذرة، يطأه الناس بأقدامهم، ثم يساق إلى ذلك السجن، ويُسْقَى من تلك العصارة، عصارة أهل النار.

«**يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ**»؛ ما أحوجنا أيها الناس إلى التواضع التواضع لله، والتواضع لرسوله ولدينه، والاستجابة لله ولرسوله، والاستجابة لدينه، والتواضع لأهل الإيمان، فإنّ هذه عقوبة عظيمة وحالة مزرية، تَصوَّر والناس ينظرون إلى ذاك الذي كان يتكبّر في الدنيا وقد حشر على هذه الصورة!

◈ الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، حمدًا كثيرًا طيِّبًا مباركًا فيه، كما يُحِبّ ربنا ويرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

أمّا بعد، فيا أيها الناس، ما أكثر الأحاديث والآيات التي ذكر الله فيها العقوبات لأصحابها في العرصات، ولكن أين المتدبرون والمتدبرات؟ من تلك الذنوب العظيمات: أكل الربا الذي صار الناس يخوضون فيه ولا يبالون، فيأكلون منه ويشربون.

قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧٥ ﴾ [البقرة].

يا أيها الناس، صار المسلمون يتعاملون بالربا ولا يبالون، لا يراقبون الله عَزَّوَجَلَّ فيما يأكلون ولا ما يشربون، لا يتحَرَّوْن في مطعمهم ولا في مشربهم.

انظر إلى الذي يأكل الربا، وليس هذا محصورا في من يأكله، ولكن من يشربه أيضًا، ومن يلبس منه، ومن يركب منه، ومَن يسكن منه، ومن يتعاطاه بأي صورة من الصور؛ ﴿ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّ ﴾ [البقرة: ٢٧٥]؛ هل رأيت ممسوسا مسحورا في حال صرعه؟ كيف يتخبط ويتألم ويصير في حالة لا يعلمها إلّا الله؛ فالمرابي في عرصات القيامة بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ وأمام الخلائق يفعل كفعل المسحور المتلبّس المتخبط، الذي قد حضرته الشياطين، ﴿ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾، لا يُبَالون، يقال لهم هذه معاملة محرمة، هذا شيء حرمه الله، فلا يبالون

بذلك.

فاتقوا الله عباد الله، واحذروا من هذا الذنب العظيم، ومن هذا الجرم الجسيم، فإنّ كثيرا من الناس لا يبالون بهذا، ولو كانوا ممن يحافظون على الصلوات ويؤدون الزكوات ويصومون رمضان ويؤدون كثيرا من الخيرات، لكنهم لا يبالون في باب الربا.

ومن تلك الذنوب عباد الله، التي يُعاقب أصحابها، أن يكون العبد في هذه الدنيا صاحب وجهين، يُنافِق في أقواله وأفعاله، فيأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه، جاء من حديث عمار بن ياسر عند الإمام أبي داود وغيره، أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَنْ كَانَ لَهُ وَجْهَانِ فِي الدُّنْيَا، كَانَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِسَانَانِ مِنْ نَارٍ**» [أخرجه أبو داود (٤٨٧٣)، وصححه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ]، تنقلب لسانه هذه القطعة من اللحم إلى نار يتعذب بها، ولا يُكتفى بذلك بل يصير له لسانان من نار جزاءً وفاقًا، لأنّ ظاهره خالف باطنه، ويقول قولا ويخالفه، فيأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه، وهذا هو حال النمامين؛ ولهذا قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وَتَجِدُونَ شَرَّ النَّاسِ ذَا الوَجْهَيْنِ الَّذِي يَأْتِي هَؤُلاَءِ بِوَجْهٍ، وَيَأْتِي هَؤُلاَءِ بِوَجْهٍ**» [أخرجه البخاري (٣٤٩٤)، ومسلم (٢٥٢٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

أيها الناس عباد الله، الذنوب كثيرة، ومنها ما نذكره في هذا المقام ما يقع فيه العبد من المخالفات الكثيرة، من ذلك التصوير لذوات الأرواح، ومن ذلك أيضًا أنّه يدَّعِي أنّه رأى المنامات الكثيرة وهو لم ير شيئًا، كلما استيقظ في صباحه يقول: رأيت في المنام، ورأيت في المنام؛ وهو يكذب، في ذلك قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ تَحَلَّمَ بِحُلْمٍ لَمْ يَرَهُ كُلِّفَ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ، وَلَنْ يَفْعَلَ، وَمَنِ اسْتَمَعَ إِلَى حَدِيثِ قَوْمٍ، وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ، أَوْ يَفِرُّونَ مِنْهُ، صُبَّ فِي أُذُنِهِ الآنُكُ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَمَنْ صَوَّرَ صُورَةً عُذِّبَ، وَكُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا، وَلَيْسَ بِنَافِخٍ**» [أخرجه البخاري (٧٠٤٢)، من حديث ابن عبّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا]. الآنك: أي الرصاص المُذاب.

وفي حديث أبي هريرة، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**يَخْرُجُ عُنُقٌ مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَهُ**

عَيْنَانِ يُبْصِرُ بِهِمَا، وَأُذُنَانِ يَسْمَعُ بِهِمَا، وَلِسَانٌ يَنْطِقُ بِهِ، فَيَقُولُ: إِنِّي وُكِّلْتُ بِثَلَاثَةٍ: بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، وَبِكُلِّ مَنِ ادَّعَى مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ، وَالْمُصَوِّرِينَ» [أخرجه أحمد (٨٤٣٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ تَحَلَّمَ بِحُلْمٍ لَمْ يَرَهُ كُلِّفَ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ، وَلَنْ يَفْعَلَ»، يُعاقَب بهذه العقوبة، يجعل في هذه الحالة يؤتى له بشعيرتين أي شعرتين ثم يؤمر أن يعقد بينهما، وفي ظل في هذه الأزمة النفسية، لا يستطيع أن يعقد بينهما وهذا من الصعب. كل هذا عقوبة من الله جَلَّ وَعَلَا لأنه يفتري ولأنه يكذب ولأنه يقع فيما يغضب الله جَلَّ وَعَلَا.

وفي حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنْيَا كُلِّفَ يَوْمَ القِيَامَةِ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ، وَلَيْسَ بِنَافِخٍ» [أخرجه البخاري (٥٩٦٣)، ومسلم (٢١١٠)]؛ انظر إلى هذه العقوبة، «إِنَّ الَّذِينَ يَصْنَعُونَ هَذِهِ الصُّوَرَ يُعَذَّبُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، يُقَالُ لَهُمْ: أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ» [أخرجه البخاري (٥٩٥١)، ومسلم (٢١٠٨)، من حديث عَبْد الله بْن عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا]، لكنهم لا يستطيعون لأن الذي ينفخ الروح هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وما أكثر الذنوب التي يعاقب عليها أصحابها في عرصات القيامة؛ وإنّما هذه أمثلة يسيرة.

وفَّق الله الجميع لما يحب ويرضى، ونسأله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى البِرَّ والتقوى، وأن يُجَنِّبنا ذنوبه ومعاصيه، وأن يأخذ بأيدينا إلى ما فيه رضاه؛ إنّه على كل شيء قدير، والحمد لله رب العالمين.

[٢٢] الشهود في اليوم المشهود

◈ الخطبة الأولى:

إنّ الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾[آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١ ﴾ [الأحزاب].

أما بعد، فإنّ أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون، عباد الله، لازلنا معكم في مشاهد العرصات، بين يدي رب الأرض والسماوات، وهي كثيرة جدا مسائلها وتفاصيلها.

وحديثنا معكم في هذه اللحظات عن أمر مهم وعظيم، وعن موقف شديد يمر به كل العباد صغيرهم وكبيرهم، ذكرهم وأنثاهم، مؤمنهم وكافرهم؛ قال الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم: ﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨ ﴾ [هود].

يوم لقاء الله عَزَّوَجَلَّ والوقوف بين يديه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يجعل عَزَّوَجَلَّ على العباد ما يبين ما

جنت أيديهم في هذه الدنيا، فيشهد عليهم بكل صغير وكبير. وهو الحكم العدل لا يظلم مثقال ذرة، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت].

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء]، ولكن يقام هذا في تلك العرصات، لينظر العباد أعمالهم ويعلموا مصيرهم وجزاءهم، بما جنت أيديهم من خير أو شر. يجعل الله عَزَّوَجَلَّ على العباد شهودا، يشهدون عليهم في العرصات، ويبينون ما عملوا في هذه الحياة.

ومن أولئك الشهود أن الله عَزَّوَجَلَّ يُنطِق جوارح العباد التي كانت لا تنطق في الدنيا، التي خلقها الله عَزَّوَجَلَّ لأعمال أخرى؛ وإذا بها في عرصات القيامة تتكلم وتتحدث، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس]، وقال في آية أخرى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور]، تنطق الأيدي وتتحدث الأرجل وتتكلم الأذنان، وتنطق جميع الجوارح والبنان بين يدي الله تبارك وتعالى بما عمل العبد بها يوم القيامة، تصور هذا الموقف!

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [فصلت].

روى الإمام مسلم في صحيحه من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ الله

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فَضَحِكَ، فَقَالَ: «**هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟**» قَالَ قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ: يَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي، قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا، قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي، قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، قَالَ: ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، قَالَ فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ**» [أخرجه مسلم (٢٩٦٩)].

«**قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي، قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ**»: يتوقف عن الكلام لسانه، يُخْتَم عليه، ينظر إلى تلك الجوارح وإذا بها تتحدث وتخرج الأسرار وتبرز المكنون الذي كان يخفيه في الدنيا عن أنظار الناس، عينه، أذنه، يده، فرجه، رجله، تتحدث، وهو ينظر لا يستطيع أن يصنع شيئا.

إنّه موقف صعب، أن تشهد عليك جوارحك فلا تجد من يقف في صَفِّك بين يدي الله تبارك وتعالى.

يا أيها الناس، ومن تلك المواقف العظيمة الشديدة، أنّ الأرض وما عليها تشهد عليك بما جَنَت يداك في هذه الحياة الدنيا من خير أو شر؛ روى الإمام البخاري وغيره من حديث أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيّ، قَالَ: «**لاَ يَسْمَعُ مَدَى صَوْتِ المُؤَذِّنِ، جِنٌّ وَلاَ إِنْسٌ وَلاَ شَيْءٌ، إِلَّا شَهِدَ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ**»، قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ؛ [أخرجه البخاري (٦٠٩)]، فالأحجار والأشجار والتراب تشهد لأصحابها أو عليها في عرصات القيامة؛ بل جاء حديث أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيَّ، أنَّ النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال في حديث: «...**وَإِنَّ المَالَ حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَنِعْمَ صَاحِبُ المَرْءِ المُسْلِمِ هُوَ لِمَنْ أَعْطَى مِنْهُ المِسْكِينَ، وَاليَتِيمَ، وَابْنَ السَّبِيلِ** - أو كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - **وَإِنَّ الَّذِي أَخَذَهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ كَمَثَلِ الَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ، فَيَكُونُ عَلَيْهِ شَهِيدًا يَوْمَ القِيَامَةِ**» [أخرجه أحمد في «مسنده» (١١١٥٧)].

بل إنّ هذه الأموال والكنوز إذا ضَيَّع حق الله عَزَّوَجَلَّ فيها، لا تكتفي بالشهادة يوم

القيامة، بها يعذب، وفي حديث مانع الزكاة: «**مَا مِنْ صَاحِبِ كَنْزٍ لَا يُؤَدِّي زَكَاةَ مَالِهِ، إِلَّا جِيءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبِكَنْزِهِ، فَيُحْمَى عَلَيْهِ صَفَائِحُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيُكْوَى بِهَا جَبِينُهُ، وَجَنْبُهُ، وَظَهْرُهُ...**» [أخرجه أحمد (٨٩٧٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]، كما أخبر الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٤ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ۝٣٥﴾ [التوبة].

والذي يمنع زكاة ما له ينقلب ما له يوم القيامة شُجَاعًا أَقْرَعَ، كما في «صحيح مسلم» في حديث إثم مانعي الزكاة وفيه: «**وَلَا صَاحِبِ كَنْزٍ لَا يَفْعَلُ فِيهِ حَقَّهُ، إِلَّا جَاءَ كَنْزُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ، يَتْبَعُهُ فَاتِحًا فَاهُ، فَإِذَا أَتَاهُ فَرَّ مِنْهُ، فَيُنَادِيهِ: خُذْ كَنْزَكَ الَّذِي خَبَأْتَهُ، فَأَنَا عَنْهُ غَنِيٌّ، فَإِذَا رَأَى أَنْ لَا بُدَّ مِنْهُ، سَلَكَ يَدَهُ فِي فِيهِ، فَيَقْضَمُهَا قَضْمَ الْفَحْلِ**» [أخرجه مسلم (٩٨٨)، من حديث جَابِر بْن عَبْدِ الله الْأَنْصَارِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]؛ «**شُجَاعًا**» أي ثُعبَانًا عظيمًا، «**أَقْرَعَ**» قد ذهب شعر رأسه لكثرة سُمِّه، فيطارد مانع الزكاة في العرصات.

التراب، الأرض التي تعيش عليها، تشهد عليك يوم القيامة: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾ [الزلزلة]. تحدث الأخبار وتبين الروايات بما عمل هذا العبد عليها في الدنيا، مَن الذي أنطق الأرض؟ إنّه الله: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة].

إذًا أيْن المفر عباد الله، إذا كان هذا هو حالنا في العرصات، السجلات والصحف التي توزع وتنشر وتتطاير، التي يكتب فيها الصغير والكبير: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ۝٥٣﴾ [القمر]، هذه الصحف تنشر لأصحابها، فيقرأونها ويتصفحونها، وتنطق

بما فيها من الحسنات والسيئات.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الإنسان].

ولا تَنْسَ ذلك الحديث العظيم، الذي هو حديث البطاقة، الذي يخرج لذلك العبد تلك البطاقة مكتوب فيها «لا إله إلا الله»، فتكون سببا لنجاته وإنقاذه بين يدي الله تبارك وتعالى.

قال الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم: ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الجاثية].

أهل الخير والصلاح والإيمان والتوحيد يأخذون الكتب بأيمانهم، ويقول قائلهم رافعا صوته: ﴿ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الحاقة]، وأما الآخر: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الحاقة]؛ بل إنّ المجرمين بيَّن الله عَزَّوَجَلَّ أنّهم يبكون ويُوَلْوِلُون ويتألمون يوم أَنْ يَرَوْا أعمالهم في تلك الصحف والسجلات ويقرأونها في تلك الكتب، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الكهف].

فيا أيها العبد، هل تفكرت في مثل هذا الموقف العظيم، الذي ليس فيه مَن يدافع عنك ولا من ينصرك ولا من يقف إلى جانبك، فإن كانت تلك السجلات مليئة بالسيئات فالويل والثبور والعقاب عند الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [طه].

يا أيها الناس، مما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم ملائكته الكرام الكاتبين الذين أخبر

الله عَزَّوَجَلَّ عنهم أنّهم يُقَيِّدون كل قول وفعل، لا يتركون شيئا من أعمال العباد من أقوالهم وأفعالهم، كل ذلك يقيد، ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق].

فإذا كان يوم القيامة، فإنّهم يُبْرِزون ما في أيديهم، ويُظْهِرون ما كتبوه، فكيف يكون الفرار وإلى أين المصير؟

قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ [ق]، سائق يسوقه من الملائكة ويجره إلى الله، وشهيد يشهد عليه من ملائكة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ إنّه ليس في محكمة من محاكم الدنيا، ولا أمام أحد من البشر أو مجموعة من الناس في هذه الحياة الدنيا، إنّه يوم العرض الأكبر بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ، وأمام الأوَّلين الآخرين، والملائكة يجرون العبد إلى الله، ويشهدون عليه بين يدي الله.

﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ [ق: ٢١]، لا يخرج من هذا العموم أحد، ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾ [ق].

◈ الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، حمدًا كثيرًا طيِّبًا مباركًا فيه، كما يُحِبّ ربنا ويرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

أمّا بعد، أيها المسلمون، مما جعل الله عَزَّوَجَلَّ من يشهد على العباد يوم القيامة وجعلهم ممن يقيموا الحجة على البشرية في الدنيا، هُم الأنبياء والرسل، ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ ﴾ [الأعراف].

الأنبياء والرسل يشهدون على العباد يوم المعاد، قال الله جَلَّوَعَلَا عن عيسى: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ۝١٥٩ ﴾ [النساء]؛ وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ ﴾ [البقرة: ١٤٣]،

الرسل جعلهم الله عَزَّوَجَلَّ شهداء على الأمم: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ۝٤١ ﴾ [النساء]، فنبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يأتي يوم القيامة شهيدا على هذه الأمة، شهيدا بالبلاغ والبيان والإيضاح، يأتي يوم القيامة يُبَيِّن أنه ترك هذه الأمة على المسلك القويم وعلى الصراط المستقيم، تركهم على الهدى والنور، كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ**» [أخرجه أحمد (١٧١٤٢)].

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝١٥ ﴾ [المزمل].

خرج النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إلى شهداء أحد فصلى عليهم - أي دعا لهم -، بَعْدَ ثَمَانِي سِنِينَ، كَالْمُوَدِّعِ لِلْأَحْيَاءِ وَالأَمْوَاتِ، ثُمَّ طَلَعَ المِنْبَرَ فَقَالَ: «**إِنِّي بَيْنَ أَيْدِيكُمْ فَرَطٌ، وَأَنَا**

عَلَيْكُمْ شَهِيدٌ، وَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الحَوْضُ، وَإِنِّي لَأَنْظُرُ إِلَيْهِ مِنْ مَقَامِي هَذَا، وَإِنِّي لَسْتُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا، وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا أَنْ تَنَافَسُوهَا» [أخرجه البخاري (٤٠٤٢)، من حديث عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ].

قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨].

وجاء أيضا في «الصحيحين» من حديث عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ: «**اقْرَأْ عَلَيَّ**»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، آقْرَأُ عَلَيْكَ، وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ، قَالَ: «**نَعَمْ**» - وفي رواية: «**إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي**»- فَقَرَأْتُ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّى أَتَيْتُ إلى هَذِهِ الآيَةِ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء]، قَالَ: «**حَسْبُكَ الآنَ**» فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ، فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ؛ [أخرجه البخاري (٥٠٥٠)، ومسلم (٨٠٠)].

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾ [النساء]؛ يا أيها المؤمن، تصَوَّر وأنت واقف بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ، وقد جاء رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، وشَهِدَ على هذه الأمة أنّه قد بَيَّن لها دين الله، وأمرها بطاعة الله ونهاها عن معصية الله عَزَّوَجَلَّ، وتَجِدُ نفسك بعيدًا عن أوامره، مُعْرِضًا عن سنته، بَعِيدًا عن طاعته، مخالفا لما جاء به من النهج القويم.

كيف يكون حالك بين يدي الله، وخصمك رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، والشهود عليك ملائكة الله، بل الأرض والصحف والجوارح، بل أعظم من هذا أنّ الله عَزَّوَجَلَّ يظهر للعباد أعمالهم صغيرها وكبيرها، ويبين لهم أنه كان مُطَّلِعا عليهم في الدنيا، يعلم الصغير والكبير، والنقير والقطمير، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء].

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٦ ﴾ [المجادلة]، الله مُطَّلِع، الله رقيب، الله حسيب، ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٦ ﴾.

ويقول الله عَزَّوَجَلَّ عن عيسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنه قال يوم القيامة: ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝١١٧ ﴾ [المائدة].

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**إِنَّ الله يُدْنِي الْمُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا، أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الكَافِرُ وَالْمُنَافِقُونَ، فَيَقُولُ الأَشْهَادُ: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٨ ﴾ [هود]**»؛ [أخرجه البخاري (٢٤٤١) ومسلم (٢٧٦٨)].

«**أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا، أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟**» تذكر ذنوبك يا عبد الله، التي ربما أخفيتها عن أنظار الناس، التي اقترفتها بالليل ونسيتها بالنهار، أو بالنهار ونسيتها بالليل. تصور وأنت العبد الفقير الذي لا يحمل نقيرا ولا قطميرا، بل لا تحمل حتى الملابس على جسدك، بين يدي ربك سبحانه وهو يقول لك: «**أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا، أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟**».

إنّما هذا في حق المؤمن الذي ربما وقع له من الزلات، فكيف بالمنافق؟ وكيف بالكافر؟ وكيف بالـمُعرِض؟ وكيف بالـمُـفَرِّط؟ فأين المفر عباد الله؟ ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ ﴾ [الذاريات].

إذا كان هذا مشهد واحد من تلك المشاهد العظيمة التي يقف فيها العبد بين يدي الله تبارك وتعالى، فمن ذا الذي يخلصه من تلك المآزق؟ ومَن ذا الذي ينصره في تلك

المواطن؟ ومَن الذي يشفع له ويقف معه ويؤازره وينصره إذا فرط في طاعة الله تبارك وتعالى؟

[٢٣] محاضرة: مواقف يوم القيامة

إنّ الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾[آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١ ﴾ [الأحزاب].

أما بعد، فإنّ أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون عباد الله، نحمد الله تبارك وتعالى، الذي يسَّر وأعان على هذه الزيارة لإخواننا في الله في هذه البلاد الطيبة الطيبّ أهلها بالدعوة المباركة، دعوة أهل السنة والجماعة التي يفرح بها كل مؤمن صادق.

فنحمد الله جَلَّ وَعَلَا أوّلا وآخرا، وظاهرا وباطنا، على نعمه الكثيرة وآلائه الجسيمة، ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ٥٣ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٥٤ ﴾ [النحل].

ويقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ ﴾ [لقمان: ٢٠].

فنِعَمُ الله عَزَّوَجَلَّ علينا تترى وتتوالى ليلا ونهارا، سرا وجهارا. فعلينا أن نحمد الله وأن

نشكر الله وأن نعلم أن هذا من الله واصطفاء منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وتوفيق منه، ليس بإرادتنا ولا قوتنا ولا ذكائنا ولا حيلتنا؛ معاشر أهل السنة، الناس يتخبطون في البدع والضلالات والانحرافات، ونحن نتقلب في هذه النعم، ليلا ونهارا، نتفيأ ظلالها، ونتمتع بثمارها، فنحمد الله تبارك وتعالى.

وعلينا أن نشكر الله وأن نزداد إقبالا وتعبدا واستقامة، فإنّ نعم الله عَزَّوَجَلَّ تدوم لأصحابها إن شكروا، وتذهب عنهم إن كفروا، ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ [إبراهيم].

أيها الناس عباد الله، يقول الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٢٨١﴾ [البقرة]. يُحذِّرنا ربنا عَزَّوَجَلَّ من أن نغفل عن ذلك اليوم العظيم، الذي ينال فيه الناس أعمالهم صغيرها وكبيرها، دقيقها وجليلها، لا يغيب من ذلك شيء.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ۝٤٧﴾ [الأنبياء].

ويقول الله عَزَّوَجَلَّ آمرا لنا بتقواه والخوف من لقاه، والخوف من تلك المصاعب العظيمة والمواقف الشديدة والأهوال الرهيبة التي تمر بالعباد في يوم المعاد: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [الحج].

كل هذا التخويف والتحذير من ذلك اليوم ومواقفه وأهواله لعلّ العباد أن يتّعظوا ولعلهم أن ينزجروا ولعلهم أن ينتفعوا.

يا أيها الناس، مواقف القيامة عظيمة لمن تخيلها وقرأ الآيات وتدبرها وفهم معانيها،

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ ﴾ [المطففين].

إنّه يوم عظيم، يقوم الناس أجمعون لرب العالمين، يقفون بين يديه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، حافية أقدامهم، عارية أجسادهم، شاخصة أبصارهم، الشمس قد دنت منهم قدر ميل، والعرق قد غرقوا فيه على حسب الذنوب والأعمال. وهم في كرب شديد ينتظرون فصل القضاء، والحساب والجزاء. فما أشدّ هذه المواقف والأهوال؟

يا أيها الناس، حديثنا معكم في هذه الليلة ليس عن يوم المعاد ككل، ولكن عن موضع وموطن منه، يقف فيه كل عبد، أقف فيه أنا وأنت، ويمر على الجميع رجالًا ونساءً، كبارا وصغارا، مؤمنين وكافرين، أبرارا وفجارًا.

الكل يمر بهذا الموقف، يا أيها الناس، مع أن الله عَزَّوَجَلَّ قد أحصى مثاقيل الذر ويعلم السر وأخفى، ويوم القيامة يبرز ما في الضمائر،ومع ذلك فإنّ الله عَزَّوَجَلَّ جعل على العباد من يشهد عليهم يوم القيامة ويبين ما جنت أيديهم في هذه الحياة الدنيا، حتى لا تكون لهم حجة ولا يكون لهم دليل إذا وقفوا بين يدي الله تبارك وتعالى، فلا يستطيعون التملص ولا التخلص.

تأتي تلك الشهود فتُبيّن ما جنَت الأيدي والقلوب والأبدان في هذه الحياة الدنيا، ويفضح من يفضح، وتظهر الأعمال، وكما قال الله جَلَّوَعَلَا في كتابه الكريم: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ۝١٨ ﴾ [الحاقّة].

ذكر الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم شُهودا على العباد يوم المعاد، وكان أعظمهم الملك الجبار الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي خلق العباد من العدم، وأمدّهم بكثير من النعم، الذي يعلم دقيق الأمور وجليلها، الذي بيده ملكوت السماوات والأرض، الذي يقول للشيء كن فيكون، الذي خلق فسوى، الذي أوجدنا وأمرنا بطاعته، ونهانا عن معصيته.

نقف يوم القيامة بين يدي الله، فيُذَكِّرنا بالأقوال والأفعال التي عملناها في الحياة الدنيا قولا فقولا وعملا فعملا.

تذكروا يا أيها الناس هذا الموقف، روى البخاري ومسلم في «صحيحيهما» عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**إِنَّ الله يُدْنِي الْمُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا، أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ اليَوْمَ، فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الكَافِرُ وَالمُنَافِقُونَ، فَيَقُولُ الأَشْهَادُ:** ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨﴾ [هود]»؛ [أخرجه البخاري (٢٤٤١) ومسلم (٢٧٦٨)].

«**فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا، أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ**» التي عملها في الدنيا. ربما كان قد نسيها في الحياة الدنيا، ربما عمل الذنب في الليل فنسيه في النهار، وعمله في النهار فنسيه بالليل.

تذكر يا أيها المسلم، فتِّش عن ذنوبك، وانظر في عيوبك، واعلم أنّك ستقف هذا الموقف.

«**قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ اليَوْمَ**»، هذا في حق المؤمن، الخطاب للمؤمن. فكيف بالكافر والفاجر والمنافق؟

وفي «الصحيحين» من حديث عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رضي الله تعالى عنه، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلاَ يَرَى إِلَّا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، وَلَوْ بِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ**» [أخرجه البخاري (٧٥١٢)، ومسلم (١٠١٦)].

تذكر هذا الموقف يا عبد الله، تذكر هذا الموقف يا طالب العلم، تذكر هذا الموقف يا أيها الداعي إلى الله: «**مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ**

مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلاَ يَرَى إِلَّا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، وَلَوْ بِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ».

قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ٣٣﴾ [النساء].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ٧٩﴾ [النساء].

إذا كان ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى العظيم الحليم الرحيم يوم القيامة يُبَيِّن لنا ما عملنا في الحياة الدنيا. إلى أين المفر؟ وما هو المخرج؟ إذا كان ربنا يقول في كتابه: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠﴾ [الذاريات]؛ وإذا به يُعَدِّد علينا ذنوبنا الظاهرة والباطنة التي عرفها الناس والتي أخفيناها عن أنظارهم. كيف يكون حالنا بين يدي الله تبارك وتعالى؟ لا ينفعنا مال ولا جاه ولا عشيرة ولا قبيلة ولا معين ولا نصير ولا مجير.

تصوروا هذا الموقف عباد الله، خلقنا الله عَزَّوَجَلَّ في هذه الدنيا لطاعته وعبادته، فضيّعنا هذه الطاعة وفرّطنا في هذه العبادة. فكيف إذا وقفنا بين يديه يوم القيامة وهو يبين لنا ويسألنا ويذكرنا بذنوبنا وسيئاتنا. موقف عظيم!

ومما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم نبينا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ.

نبينا محمدا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ ممن ذكره الله في كتابه، النبي الأمين الرحمة المهداة السراج المنير الرسول الكريم الذي بلغنا أتّم البلاغ وأوضح السبيل وأنار لنا الطريق، تركنا على صراط مستقيم وهدي قويم، يأتي يوم القيامة يشهد أنّه قد بلّغ دين الله وبلّغ شرع الله.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ١٦ فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا ١٧﴾ [المزمل].

ويقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ

﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾ [البقرة: ١٤٣].

تصوّر وأنت واقف بين يدي الله جَلَّ وَعَلَا، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يشهد عليك كما يشهد على سائر الأمة، وقد فرّطت في طاعته وضيعت شيئا من سنته وأعرضت عن أوامره.

جاء في «الصحيحين» من حديث عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**اقْرَأْ عَلَيَّ**»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، آقْرَأُ عَلَيْكَ، وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ، قَالَ: «**نَعَمْ**» - وفي رواية: «**إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي**»- فَقَرَأْتُ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّى أَتَيْتُ إلى هَذِهِ الآيَةِ: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ٤١﴾ [النساء]، قَالَ: «**حَسْبُكَ الآنَ**» فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ، فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ؛ [أخرجه البخاري (٥٠٥٠)، ومسلم (٨٠٠)].

﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ٤١ يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ٤٢﴾ [النساء].

إنّه موقف عظيم، ومشهد مَن تصَوّره حقيقة التصوّر حمله على الإقبال على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، ولكننا نقرأ مثل هذه الأدلة، فيضعف إيقاننا وإيماننا بها وتصديقنا لها، أو تصيبنا الغفلة والنسيان فنقع في العصيان، ولا حول ولا قوة الا بالله.

مما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم: الملائكة الكرام الكاتبين، الذين يلازمون العباد سفرا وحظرا، صحة ومرضا، ليلا ونهارا، فيقيدون الأقوال والأفعال، ويكتبون الصغير والكبير والنقير والقطمير؛ ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ١٨﴾ [ق].

ملائكة الرحمن الذين ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ [التحريم]، يوم القيامة يشهدون على العباد، يوم المعاد، يُبَيِّنون ما عمل الناس، قال الله جَلَّ وَعَلَا في

كتابه الكريم في سورة قٓ: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ١٩ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ٢٠ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ٢١﴾ [ق]، في ذلك الحشد العظيم والقيام لرب العالمين، من الملائكة من يجر العبد إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ومنهم من يشهد عليه!

تصوّر يا عبد الله وأنت على هيئتك وحالتك من الضعف والعجز والحاجة والفقر والخوف والذعر والانزعاج. وإذا بملائكة الرحمن يقودونك إلى أين؟ إنّه إلى رب السماوات والأرض، وإلى جبّارهما. ثم هناك من الملائكة من يشهد عليك بأعمالك وما جَنَت يداك وما فعلتَ في هذه الدنيا.

يا أيها الناس، لو أنّ أحدنا جُرّ إلى محكمة من المحاكم، أو إلى قاض من القضاة أو إلى مسؤول من المسؤولين، أو جُرَّ أمام جملة من الناس وجماعة منهم، لكان في حالة حرجة ولو كان بريئا لم يعمل شيئا. فكيف وهو يقاد إلى الله؟ فكيف وهو يُجرّ بين يدي الخلائق أجمعين؟ فكيف والذين يسوقونه ملائكة رب العالمين؟

﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ٢١﴾ [ق]، ﴿مَّعَهَا سَآئِقٞ﴾ أي من الملائكة، ﴿وَشَهِيدٞ﴾ أي من الملائكة، يشهدون عليه بما عمل في الحياة الدنيا.

فاتقوا الله عباد الله، واتقوا ذلك اليوم العظيم، وتذكروا لقاءه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وممن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم: الصحف والسجلات التي تُقيَّد فيها الأعمال، وتُكتب فيها الأقوال، التي لا يغادرها شيء، تلك الصحف تنشر لأصحابها، فَيَرَوْنَ أعمالهم ويتصفحونها، التي ربما أخفوها في الحياة الدنيا، قال الله جَلَّوَعَلَا في كتابه الكريم في سورة الإسراء: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ١٣ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ١٤ مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ١٥﴾ [الإسراء]. تقلّب الصفحات، وتنظر في أوراق تلك السجلات، فتجد فيها

الخبيئات التي ربما تغافلت عنها أو غالطت فيها أو أخفيتها.

قال الله عَزَّوَجَلَّ وهو يصف حال المجرمين عند قراءة الصحف والكتب وهم يصيحون ويولولون ويتباكون: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الكهف]. هل أنت ممن يؤمن بهذه الآية؟ هل ممن يؤمن بهذه الآية أنّ الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا وقد كتبت فيه؟ ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [القمر].

ويقول الله عَزَّوَجَلَّ في سورة الجاثية: ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الجاثية].

كُلُّ شيءٍ يُكتَب، وكُلّ شيءٍ يُعرَض. وكُلّ شيءٍ يظهر، ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحاقة].

فهنيئًا لمن أخذ كتابه بيمينه، والويل لمن أخذ كتابه وراء ظهره بشماله؛ هنيئا لمن فتح الكتاب ووجد فيه الأعمال الصالحة، والويل كل الويل لمن وجد الكتاب مسودا بأعماله السيّئة وأقواله الباطلة.

يا أيها الناس، وممن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم، ممن يشهد على العباد يوم القيامة: هذه الأرض التي نعيش على ظهرها، هذه الأرض التي إن خلا بعض الناس بنفسه فيها ربما عصى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتذكر أو نسي ولم يتذكر أن الله مطلع عليه، وهو شهيد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ورقيب، ولم يتذكر أن الملائكة لا يغادرون ذلك المشهد، ولم يتذكر أن الكتاب فيه يُكتَب، من لم يتذكر أن الأرض تشهد وأنها تفضحه يوم القيامة.

قال الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا

﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ ﴾ [الزلزلة].

﴿ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ ﴾ [الزلزلة]، يتعجب ما لهذه الأرض تتحدث؟ لم تكن قبل ذلك تتحدث، لكن الله هو الذي أمرها أن تتحدث، أمرها أن تُخرِج أخبارها وأن تعلم بما عمل العباد عليها.

﴿ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة].

فاتقوا الله عباد الله، وراقبوه في السرّ والعلن، وفي الخلوات والجلوات، وفي القول والعمل، راقبوا الله عَزَّوَجَلَّ في أنفسكم وفي اعتقادكم وفي أعمالكم وفي أقوالكم وفي أخلاقكم وفي كل ما تأتون وتذرون، فإنّ يوم القيامة يوم عظيم، من فُضِحَ في ذلك اليوم فهو الخاسر، ومن سُتِر فيه وغُفِر ذنبه فهو السعيد بإذن الله جَلَّوَعَلَا.

مما ذكر النبي، وهكذا ذكر الله عَزَّوَجَلَّ ممن يشهد على العبد يوم القيامة: جوارحه، أعضاؤه التي يحملها في جسده، هذه النعم التي كان الواجب عليه أن يستعملها في طاعة الله، وأن يستعين بها على عبادة الله.

هذه الجوارح اذا استعملت في غير طاعة الله وجل فإنها تفضح أصحابها يوم القيامة، سبحان الله! ما الذي يبقى معنا؟ الكُلّ يتخلى عنك، حتى الجوارح تقف لك خَصْمًا يوم القيامة.

روى الإمام مسلم في «صحيحه» من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ فَضَحِكَ، فَقَالَ: «**هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟**» قَالَ قُلْنَا: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ: يَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي، قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا، قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي،**

قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، قَالَ: ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، قَالَ فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ» [أخرجه مسلم (٢٩٦٩)].

حتّى في عرصات القيامة يريد أن يظن أنه يتملص، يظنّ أنه في الدنيا؛ في الدنيا يمكن أن تغالط نفسك أو تغالط زوجتك أو تغالط أبناءك أو جيرانك أو طلابك أو أصدقائك أو تغالط المجتمع كله. لكن بين يدي الله تبارك وتعالى لا تستطيع.

قال: «**قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي، قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ**»، يُمنَع من الكلام، ويُؤذَنُ لجوارحه أن تتكلم أو تنطق. فتنطق بما عمل بها في الحياة، عينه تتكلم، أذنه تتكلم، يده تتكلم، رجله تتكلم، فرجه يتكلم، تنطق جوارحه. وكل واحد يبدي ماذا عمل هذا العبد بهذه الجارحة من معصية الله عَزَّوَجَلَّ، وهو ينتظر لا يستطيع أن يتكلم لأنه قد ختم على فيه.

«**قَالَ: ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، قَالَ فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ**»، أي أنني ما جادلت هذه المجادلة إلّا لتسلم هذه الأعضاء من نار جهنم.

قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [يس].

ويقول الله عَزَّوَجَلَّ أيضًا في سورة فصلت: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [فصلت].

اتق الله يا عبد الله، اتق الله يا طالب العلم، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا

يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ٢٢ وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣ فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ ٢٤ ﴾ [فصلت].

مواقف عظيمة مؤلمة شديدة لمن قرأ هذه الآيات وكان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، لكن ذنوبنا يا عباد الله أثّرت على قلوبنا، فصرنا لا ننتفع كثيرا بآيات القرآن، وإلّا فإن الله عَزَّوَجَلَّ يقول عن هذا القرآن: ﴿ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٢١ ﴾ [الحشر].

حُفَّاظُ القرآن ينبغي أن يكونوا أشدّ الناس انتفاعا بالقرآن، وبسنة النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أكثر من غيرهم.

تصور هذه المواقف العظيمة يقفها العباد أجمعون، مهما كان صلاحك في الدنيا ومهما كانت استقامتك تُعرَض على هذه المواقف العظيمة، لا ينفعك جاهك ولا جمالك ولا مالك ولا عشيرتك ولا قبيلتك ولا مكانتك في المجتمع الدينية والدنيوية، إذا كان بينك وبين الله عَزَّوَجَلَّ خبايا من الذنوب والسيئات، قال الله جَلَّوَعَلَا عن إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿ وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ٨٧ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ٨٩ ﴾ [الشعراء].

يا أيها الناس، في هذه المواقف العظيمة التي نفتقر فيها إلى من يعيننا وإلى من يشفع لنا وإلى من ينقذنا وإلى من يتعاون معنا، وإذا بالكُلّ يتخلّى ويتبرأ ويهرب ويترك، قال الله جَلَّوَعَلَا في كتابه الكريم: ﴿ يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ١٣ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ ١٤ ﴾ [المعارج].

الكلّ! من شدة الموقف وعظيم الفزع وعظيم الكرب، كلّ يتخلى عن الآخر، يتخلى عن زوجته وأبنائه، يتخلى عن أبيه وأمّه، يتخلى عن عشيرته وقبيلته، بل يتخلى عن أهل

الأرض كلهم، لو أنّهم يذهبون إلى نار جهنم ويسلم وحده من عذاب الله.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝١٦ ﴾ [المعارج]؛ إذًا فلنتّق الله، ولنراقب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

يا معشر طلاب العلم ويا أهل السنة ويا من تحضرون هذه المجالس، الحجة عليكم أعظم، فحامل القرآن إما أن يحمله حجة له أو حجة عليه؛ الحجة عليكم أعظم من غيركم إن فرطتم في تدبر هذه الآيات والخوف من لقاء الله عَزَّوَجَلَّ والإقبال على طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، إن فرطتم فيما تحفظون وفرطتم فيما تكتبون وضيّعتم ما تقرؤون، فلقيتم الله عَزَّوَجَلَّ وأنتم مفرطون وعندكم من الذنوب والمخالفات ما تكون سببا للعقاب والحساب.

يا أيها الناس، علينا أن نتقي الله عَزَّوَجَلَّ وأن نُراجع أنفسنا وأن نتذكر مثل هذه الآيات العظيمة التي نجد أنّ الله عَزَّوَجَلَّ يقول لنا فيها: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ۝٢٨١ ﴾ [البقرة]، ويأمرنا بتقواه وخشية الوقوف بين يديه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فنتقي الله عَزَّوَجَلَّ في أقوالنا وفي أفعالنا وفي حركاتنا وفي سكناتنا ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، ولنكن قدوة للمجتمعات المسلمة الذين نأمرهم بالمعروف وننهاهم عن المنكر، وندعوهم إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإنّنا نخشى والله أنّنا نحمل الحجج على ظهورنا، كما أخبر الله جَلَّوَعَلَا عن بعض بني إسرائيل: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥ ﴾ [الجمعة].

فاتقوا الله عباد الله، وراقبوا الله عَزَّوَجَلَّ، وأقبلوا على طاعته، وتذكروا لقاءه والوقوف بين يديه، وأنّنا في يوم من الدنيا إليه راحلون وبين يديه موقوفون، وأنّه سائلكم عن الصغير والكبير، وعن النقير والقطمير، فما أنتم قائلون في ذلك اليوم العظيم؟

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، تبيَّض وجوه أهل الحق والطاعة. وتسودُّ وجوه أهل الباطل والمعصية والبدعة؛ يوم تبيّض وجوه أهل الإيمان، يوم يُكرم فيه من يكرم، ويُهان فيه من يهان، ﴿ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحج].

يوم يُظِلّ الله عَزَّوَجَلَّ بظِلِّ عرشه مَن شَاء مِن عباده وخلقه، وآخرون في شدة الحرّ والكرب، في يوم شديد حرّه وعظيم خطبه، يومٌ هُو على الكافرين كخمسين ألف سنة، وعلى غيرهم كألف سنة، يوم عظيم كما أخبر الله في كتابه الكريم، فعلينا أن نُقبِل على طاعة الله، وأن نُبادِر إلى مرضات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وخصوصا ونحن في زمن وفي بيئة لا يساعد أهله على الخير ولا يشجع عليه؛ فسارع إلى طاعة الله وجاهد نفسك في مرضات الله.

«بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا» كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ؛ [أخرجه مسلم (١١٨)، من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

وقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [آل عمران].

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ بمَنِّه وكرمه وجوده وإحسانِه أن يُعِينَنا وإيّاكم على ذكره وشكره وحسن عبادته؛ وأن يجعلنا ممن يستمع القول فيتبع أحسنه، وأن يرزقنا الإخلاص في

القول والعمل؛ إنّه على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى له وصاحبه وسلم. وبارك الله فيكم.

الفهرس

مُقَدِّمة ٣
[١] تذكر الموت ٤
◈ الخطبة الأولى: ٤
◈ الخطبة الثانية: ٩
[٢] سكرات الموت ١٢
◈ الخطبة الأولى: ١٢
◈ الخطبة الثانية: ١٩
[٣] القبر أول منازل الآخرة ٢٣
◈ الخطبة الأولى: ٢٣
◈ الخطبة الثانية: ٢٨
[٤] فتنة القبر ٣٢
◈ الخطبة الأولى: ٣٢
◈ الخطبة الثانية: ٣٧
[٥] عذاب القبر ونعيمه (١) ٤٠
◈ الخطبة الأولى: ٤٠
◈ الخطبة الثانية: ٤٦
[٦] عذاب القبر ونعيمه (٢) ٥٠
◈ الخطبة الأولى: ٥٠
◈ الخطبة الثانية: ٥٦
[٧] بعض الأحكام والفوائد التي تتعلق بالقبور ٥٩
◈ الخطبة الأولى: ٥٩
◈ الخطبة الثانية: ٦٣
[٨] النفخ في الصور والبعث والنشور ٦٧
◈ الخطبة الأولى: ٦٧

◈ الخطبة الثانية: ٧٠
[٩] حشر العباد ليوم المعاد ٧٣
◈ الخطبة الأولى: ٧٣
◈ الخطبة الثانية: ٧٨
[١٠] قيام الساعة ٨٠
◈ الخطبة الأولى: ٨٠
◈ الخطبة الثانية: ٨٥
[١١] محاضرة: الحساب والجزاء ٩٠
[١٢] الحوض المورود ١٠٤
◈ الخطبة الأولى: ١٠٤
◈ الخطبة الثانية: ١٠٩
[١٣] الشفاعة العظمى ١١٤
◈ الخطبة الأولى: ١١٤
◈ الخطبة الثانية: ١١٩
[١٤] الميزان يوم القيامة ١٢٢
◈ الخطبة الأولى: ١٢٢
◈ الخطبة الثانية: ١٢٧
[١٥] المرور على الصراط ١٣٠
◈ الخطبة الأولى: ١٣٠
◈ الخطبة الثانية: ١٣٥
[١٦] الحساب يوم القيامة ١٣٨
◈ الخطبة الأولى: ١٣٨
◈ الخطبة الثانية: ١٤٣
[١٧] القصاص يوم القيامة ١٤٥
◈ الخطبة الأولى: ١٤٥
◈ الخطبة الثانية: ١٤٩

[١٨] أسئلة يوم القيامة (١) ١٥٢
◈ الخطبة الأولى: ١٥٢
◈ الخطبة الثانية: ١٥٧
[١٩] أسئلة يوم القيامة (٢) ١٥٩
◈ الخطبة الأولى: ١٥٩
◈ الخطبة الثانية: ١٦٤
[٢٠] محاضرة: تذكير العباد ببعض مواقف يوم المعاد ١٦٦
[٢١] عقوبات العصاة في العرصات ١٨١
◈ الخطبة الأولى: ١٨١
◈ الخطبة الثانية: ١٨٦
[٢٢] الشهود في اليوم المشهود ١٨٩
◈ الخطبة الأولى: ١٨٩
◈ الخطبة الثانية: ١٩٥
[٢٣] محاضرة: مواقف يوم القيامة ١٩٩
الفهرس ٢١٣